

المفكر العربي

النقد الذاتي بعد الهزيمة

الدكتور

صادق جلال العظم



النقد الذاتي بعد الهزيمة

الدكتور
صادق جلال العظم

النقد الذاتي بعد الهزيمة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الاولى ايلول سنة ١٩٦٩

الطبعة الثانية اذار سنة ١٩٦٩

الطبعة الثالثة آب سنة ١٩٦٩

الطبعة الرابعة تموز سنة ١٩٧٢

« تتحول الحضارة حينما يتحول فجـأة عنصرها المضطهد — مذلة العبـد وكدح الشغيل — الى قيمة . أي حينما يكف المضطهد عن محاولة الهروب من ذله ليطلب فيه خلاصه ، وحينما يكف الشغيل عن محاولة الهروب من كدحه هذا لنجد فيه مبرر وجوده . المصنع الذي لا يزال اشبه بكنيسة الديناميس يجب ان يصبح كالكاتدرائية، وعلى الانسان ان يرى فيها عوضاً عن الآلهة القوة الانسانية وهي تصارع الارض. »

اندريه مالرو

١٩٣٣

مُقَدّمَة

ارجو ان يكون التفكير العربي الواعي قد وصل إلى مرحلة تجاوز فيها اعتبار النقد مجرد عمليـــة تجريح أو تعداد لعيوب ومثالب ونقائص لا تنتهي . أي ان يكون قد حقق مستوى يعتبر على اساسه النقد انه التحليل الدقيق بغيـــة تحديد مواطن الضعف واسباب العجز والمؤثرات المؤدية الى وجود العيوب والنقائص . وكل نقد يلتزم بهذا المفهوم لا بد أن يكون هادفاً في تدرجه ، وايجابيـــاً في حصيلته مهما بدى ، لأول وهلة ، سلبياً وقاسياً .كما ارجو أن يكون الوجدان العربي الواعي قد تجاوز المرحلة السابقة للهزيمة حيث كان النقد متهماً دوماً ، وبصورة مسبقة ، بانه تشويش على الاتجـــاه الثوري التحرري وبأنه تشكيك في القدرة العربية واضعاف لها أمام تحديات اسرائيل والصهيونية والقوى الاستعمارية الداعمـــة لها . وحين وضعت

القدرة العربية ، التي كان محرماً « التشكيك » بها ، على المحك جاءت الهزيمة على صورة مـا كان يمكن ان يتصورها أو يتمنى أفضل منها حتى العدوّ نفسه . وأفضل شاهد على ما أقول مـا رواه محمد حسنين هيكل في مقالة من مقـالاته (الانوار ١٢ / ٧ / ١٩٦٨) عن كيفية تقبل الزعماء السوفيات للهزيمـة العربية الاخيرة . قال هيكل :

> ان السوفييت فوجئوا بنتيجـة المعارك التي بدأت يوم ٥ يونيو ، وبصرف النظر عن كل مـا رأوه من اسباب القصور فان حجم الهزيمة كان أمام عيونهم شيئاً لا يصدق وفي النهايـة فلقد اخذوه — ولم يكن امامهم غير ذلك — كما تؤخذ الظواهر من كوارث الطبيعـة كالاعاصير والزلازل وما شابه ذلك .

ولا جدال في أن اغلى غلاة المشككين ما كان ليحلم او يتصور في لحظة من اللحظات بأن يوماً سيأتي يوصف فيه انهيار القدرة العربية المذكورة على طريقة وصف الزلازل والاعاصير وكوارث الطبيعة العمياء .

يجد القارىء في هذا البحث نقداً وتحليـلا للاوضاع المحيطة بالهزيمة والمرتبطة بها، كما يجد مناقشة لعدد من الآراء ووجهات النظر التي نشرها بعض المفكرين والكتاب والمعلقين العرب في تفسيرها والعمل على تخطيها . ولا بد لي من التنويه بأنني كنت

قد عبرت عن بعض الافكار والآراء الواردة في هذه الدراسة في مناسبات سابقة أهمها المحاضرة التي القيتها من على منبر الندوة اللبنانية في شهر شباط ١٩٦٨ وبعض المقالات المنشورة في مجلة « دراسات عربية » الصادرة عن دار الطليعة في بيروت (أعداد آب وأيلول ١٩٦٧ ، تموز ١٩٦٨) .

صادق جلال العظم

بيروت ، آب ١٩٦٨

النقد الذاتي بعد الهزيمة

I

في الأيام الأولى من سنة ١٩٠٤ تمكّنت دولة آسيوية صغيرة دخلت حديثاً في مضمار التطور العلمي والبناء الصناعي والتنظيم العسكري الحديث من توجيه ضربة عسكريـــة قاصمة ، ليس الى أكبر دولة برّية في اوربا فحسب ، بل الى دولة كانت تعتبر حينئذٍ من أقوى الدول البحرية في العـــالم ـ وهي روسيا . حققت اليابان نصراً سريعاً ومذهلاً ، بمقاييس ذلك الزمان ، رغم التفاوت التقليدي بين البلدين وتفوق روسيا المعروف ، في جميع الوجوه بما في ذلك المساحة والسكان والطاقات الكامنة في البلاد . أحرزت اليابان نصرها الساحق بشن هجوم مفاجىء على الاسطول الروسي في المحيط الهادىء وحطمته من حيث هو قوة محاربة وشلّت فعاليته مما أعطى اليابان السيادة التامـــة

والمطلقة على البحار منذ البداية . ونذكر هنا أن البحرية في تلك الأيام كانت تعني للدول المتخاصمة، من حيث الاهمية والخطورة، ما يعنيه سلاح الطيران بالنسبة لجيلنا اليوم ، وان السيطرة على البحار كانت تعني شيئاً شبيهـــاً جداً بما تعنيه السيطرة على الاجواء بالنسبة لحروبنا الحاضرة وخاصة حروب الصحراء . وبعد ان قضت اليابان على الاسطول الروسي في الضربة الأولى لم يعد من شك أن الدولة الفتية ستنتصر بسرعة على روسيا الهرمة، رغم ضخامة حجمها ، بسبب تخلّفها ، ان هي قيست بعدوها ومدى تقدمه . أضف الى ذلك ان من يتتبّع وقائع هذه الحرب يتبين كيف أن روسيا القيصرية أخطأت في تقدير طاقاتهـــا وقدراتها على استنفار نفسها للرد على الضربة الاولى بضربة أشد منها تحقق لها نتائج عسكرية وسياسية أفضل من التي حدثت فعلاً . ومن يراجع وقائع التاريخ يجد أوجه شبه واضحـــة ومتعددة بين ما حدث في شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٤ بين اليابان وروسيا من جهة ، وبين ما حدث صباح الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ بين العرب واسرائيـــل من جهة ثانية . واذا كان التاريخ لا يعيد نفسه بتفاصيله ودقائقه فان ذلك لا يعني ان الاحداث التاريخية لا تجري ضمن انماط معينة متكرّرة يمكن درسها وتمحيصها ، والالما تعلّم الانسان شيئاً من التجربـــة ولما استفاد من الماضي ولمـا وجد في التاريخ مغازي تطلّ على الحاضر .

لنذكر هنا بعض أوجه الشبه التي أشرت اليها بين الحدثين

اللذين نحن بصددهما : لم يكن باستطاعـــة القيصر ومستشاريه والمسؤولين عن تسيير سياسة البلاد أن يتصوّروا تجرّؤ هـــذه الدولة الصغيرة على فتح جبهة حرب مع أضخم قوة في اوروبا . قال الخبراء العسكريون الروس يومها اذا بلغت اليابان حداً من الجنون جعلها تهاجم روسيا فان روسيا مستعدة للرد عليها مباشرة ومواجهة جميع تحركاتها بدون عناء كبير [1] . وامثال هـــذه التصريحات قبيل الخامس من حزيران لا تزال تطن في آذاننا وتتردّد في أذهاننا وتحزّ في قلوبنا . أعـــدّ هؤلاء الخبراء العسكريون عدّتهم بحيث تتلقى روسيا الضربة الأولى في مراكزها الدفاعية ثم تقوم بتعزيز قواها وتتحول الى الهجوم الكاسح الذي « سيدفع بهؤلاء الاسيويين الوقحين الى البحر » [2] ، على حـــد قولهم بالحرف الواحد . وأدت هذه الثقة بالنفس الى تصريحات وعناوين في الصحف الروسية تتمثل بالقول التالي : سيهزم الروس اليابانيين بدفنهم تحت قبعاتهم [3] . كما كتب أحد كبار الضباط الروس معبراً عن هذا المزاج الذي كان طاغياً في الاوساط الرسمية الروسية والأجهزة الحكومية قائلا : ليست اليابان بلداً من النوع

---

(١) Sidney Harcave, **First Blood : The Russian Revolution of 1905**, Macmillan, N. Y., 1946, ص ٣٧

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

الذي يعطي انذاراً الى روسيا اما روسيافيجب عليها الا" تتقبل انذاراً من بلد مثل اليابان[4]. ولا يضاهي هذا الاستهتار بالعدو وقوته وهذه الثقة الجوفاء بالنفس الا ما كتبه المعلق المعروف محمد حسنين هيكل في الأهرام في اليوم الثاني من حزيران سنة ١٩٦٧ حيث قال :

مهما يكن ، وبدون محاولة لاستباق الحوادث فان اسرائيل مقبلة على عملية انكسار تكادتكون محققة... سواء من الداخل أو من الخارج .

ومـا كتبه مراسل الجمهورية يوم ٢١ أيـار ١٩٦٧ تحت عنوان « في ساعات يمكن ان نسحق اسرائيل ، بغير استخدام كافة اسلحتنا في المركة » والتأكيد الذي أطلقه أحد كبار الضباط في جيش عربي بأن القضاء على اسرائيل لن يحتمل أكثر من أربعة أيام على أبعد تقدير . وما نشرته الاهرام في بابـ تقديرها للطاقات العسكرية العربية والاسرائيلية وذلك في ٢٧ أيار ١٩٦٧ ، حيث جهدت بكل ما أوتيت من قـوة على الانتقاص من قيمة الاسلحة الاسرائيلية والرفع من قيمة الاسلحة

---

(٤) J. A. White, The Diplomacy of The Russo-Japanese War, Princeton University Press, 1964, ص ١٤٢ — ١٤٣ .

العربية واعتبرت قوة اسرائيل اسطورة يروّج لها الغرب وقالت عن جيش العدوّ بأنه لا تتوفّر فيه أية وحدة لأنه يضم شراذم متنافرة من كافة انحاء العالم . ومن أوجه الشبه بين الحربين أن الضربة الأولى المحكمة التي حطمت الاسطول البحري الروسي قرّرت نتيجة الحرب منذ البداية وبسرعة مذهلة. كذلك كانت النتيجة بالنسبة للحرب العربية الاسرائيلية الأخيرة بعد الضربة المحكمة التي حطّمت الاسطول الجوي المصري ، غير ان الكارثة الثانية قرّرت مصير الحرب مع اسرائيل بسرعة لم يسبق لها مثيل مما مكّن مراسل الاذاعة البريطانية (BBC) ان يعلن مساء الخامس من حزيران في النشرة الاخبارية التي تذاع الساعة العاشرة ما يلي :

بعد أقل من ١٥ ساعة من البدء بالقتال ربحت
امرائيل الحرب. لم تعد مصر قادرة على القتال...
انه اسرع انتصار عرفه العالم الحديث (٥) .

كانت اليابان ، رغم صغر حجمها بالقياس الى روسيا ، قد تمكنت من امتصاص مقومات الحضارة الحديثة مثل الصناعة

---

(٥) R. S. Churchill, The Six Day War, W. Heinemann Ltd ., London, 1967, ص ١٥٧

والتكنولوجيا والبحث العلمي المنظم والتدريب الفني وتمثلتها كلها بسرعة فائقة مما جعلها تتحدى دولة كبرى وتنتصر عليها، إذ أن روسيا مع ما دخل عليها من اصلاحات ومحاولات للتجديد والتصنيع وتمثل للعلم الحديث ظلّت في جوهرها دولة متخلفة مطمئنة الى ماضيها وتراثها حتى جاءت الحرب لتبين لها حقيقة موقعها في هذا المضمار عند قياسها بالنسبة الى ما حققته دولة أخرى أصغر منها وعلى عداء معها . وليس ضرورياً ان أبين أن هذه المقارنة بين روسيا واليابان في سنة ١٩٠٤ تنطبق بمعظم حذافيرها وتفاصيلها على أية مقارنة نقوم بها بين اسرائيل من ناحية والوطن العربي من ناحية أخرى في سنة ١٩٦٨ .

وبعد الهزيمة التي منيت بها روسيا انطوت على نفسها تراجع نفسها وتعيد النظر في كلّ شيء وتنتقد ذاتها على لسان مثقفيها ومفكّريها وفنانيها وأحزابها والفئات القيادية الواعية من طبقاتها الكادحة فكانت ثورة ١٩٠٥ المشهورة أول النتائج المباشرة الكبيرة للهزيمة العسكرية وأول ثمار حركة مراجعة النفس ونقدها . ومع أن ثورة ١٩٠٥ اخفقت فقد تلتها اضطرابات وانتفاضات مهدت الطريق لثورة اوكتوبر الشاملة التي جاءت حاقدة على الانماط التقليدية الاتباعية المتوارثة في الانتاج والتفكير والتنظيم والحكم، هذه الانماط التي فضحتها الحرب ووضعتها على المحك وبينّت مدى اهترائها وانعدام فعاليتها بالنسبة للحضارة الحديثة والمعاصرة . بعبارة أخرى تمكّنت روسيا من تحويل الهزيمة

العسكرية من محنة إلى تجربة ومن كارثة إلى درس حضـاري ، وما كان باستطاعتها أن تحقق كل ذلك لولا أنها تقبلت مسؤولية الهزيمة ووضعتها على نفسها ولم تحاول لوم أحد غير ذاتها وواقعها وتنظيماتها وحقيقتها القائمة وخاصة عند قياسهـا بواقع العدوّ وحقيقته . وينبغي أن يكون واضحاً للعرب بأن هزيمتهم الأخيرة تشبه الهزيمة الروسية كل الشبه من حيث انها لا تتلخص في كونها مجرد فشل عسكري عابر جاء نتيجة تحالفات سياسية وتقلبات دبلوماسية لم تكن في صالحنا ، بل جاءت في معظمها في صالح العدو ، ومن حيث أنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأوضاع الاقتصادية والثقافية والعلمية والحضارية السائدة في الوطن العربي التي جاءت الهزيمة انعكاساً لها وتعبيراً عن حقيقتها القائمة .

وهنا ينبغي أن أشير إلى فارق رئيسي بين روسيا بعد هزيمة سنة ١٩٠٤ من ناحية وبين العرب بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ من ناحية أخرى . ما من متتبع لأوضاع العرب قبل الحرب الأخـيرة وبعدها إلا وقد لاحظ أن هناك نزعة عنيفة تميّزنا بها وهي إجهاد أنفسنا إلى أبعد الحدود بغيـة التملص من مسؤولية الهزيمة التي لحقت بنا واسقاطها على أمور خارجية لا دخل لنا فيها مما يسمح لنا تسويغ ما وقعنا فيه من مواقف محرجة وتقصير في واجباتنا تجاه القضية العربية الأولى وتجاه تحديات الحضارة الحديثة بصورة عامة . ومع أن كل واحد منا يعرف في أعماقه أن المسؤولية في الهزيمة لا تقع في نهاية الأمر إلا علينا نحن ، فإننا نحاول دوماً في

كلامنا وفكرنا وكتاباتنا وتصريحاتنا ان نحفظ ماء الوجه ، أو أن نصون المظاهر ، أو ان نراعي المشاعر ، أو ان نهتم باللياقات والمعنويات والمجاملات والخواطر ، عوضاً عن تسمية الأمور بأسمائها وتحديد المسؤوليات كما يجب ان تحدد تماماً ، فنقول للفاشل لقد أخفقت وللعاجز لقد عجزت . وقد تجلّت هذه النزعة في إزاحة المسؤولية عن النفس في ادعائنا أن الطائرات الاميركية والبريطانية شكّلت مظلّة واقية فوق إسرائيل وشاركت في ضرب مواقعنا مشاركة فعّالة وتجلّت ايضاً في اللوم الذي صببناه على الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الاشتراكية بعد الحرب مباشرة ، علماً بأن ما من دولة في التاريخ فقدت الجزء الاعظم من سلاحها في بحر اسبوع ثم استعادت الجزء الاكبر مما فقدت في بحر شهرين إلا الجمهورية العربية المتحدة والفضل في تعويضه يرجع الى الاتحاد السوفياتي ، كما تجلت في المبالغات التي وصلنا إليها في نسبة كل السلبيات في الموقف العربي العسكري والسياسي إلى الاستعمار ، واشتط البعض في هذا الاتجاه فجرّوا الآلهة والغيبيات ليفسّروا بواسطتها الاخفاق العربي ويسوّغوه كما جاء في كتاب صدر حديثاً تحت عنوان : « أعمدة النكبة » حيث يقول المؤلف : « لقد تخلّى العرب عن إيمانهم بالله ، فتخلى الله عنهم ». (٦) وكأن علاقة الانسان بربّه تقوم على أساس الحاجات

---

(٦) صلاح الدين المنجد ، « أعمدة النكبة »، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٧ ، ص١٧.

المتبادلة والمنافع المشتركة على طريقة إن تركتني تركتك وإن أحببتني أحببتك. وصرّح مفتي المملكة الأردنية الهاشمية في ٢٢ كانون الاول ١٩٦٧ إلى صحيفة الدستور بما يلي في معرض تفسيره للهزيمة العربية واستخلاصه لمغازيها ومعانيها فقال عن اليهود :

ليس فيهم من القوة ولا من البأس ولا من الشجاعة ما يستطيعون معه أن يفعلوا فعلتهم هذه ، ونحن من أعلم الناس بهم ، ولكن الله أراد أن يسلط علينا هذه الفئة نتيجة بعدنا عن ديننا .

في الحقيقة لقد بلغ الشطط بهذا النمط من التفكير إلى درجة الترحم على الدولة العثمانية وخلافتها . فقد كتب صاحب كتاب « أعمدة النكبة » ما يلي في معرض تحليله للهزيمة العربية :

لكن الباحث المنصف ، لا يجد من ثمار هذه الدعوة القومية والوطنية في أولها إلا هدم الخلافة العثمانية ، وفي آخرها إلا الابتعاد عن الدين وعن الايمان .

ونتج عنها من ناحية أخرى ، أن العرب لم ينالوا استقلالاً ولا حرية بعد انكسار العثمانيين وتمزق الامبراطورية العثمانية ، بل كسبوا

انتداباً وحماية واستعماراً ، وصار العثمانيون
المسلمون « مستعمرين » في نظر القوميين ،
إتباعاً لما يقوله الأوروبيون [٧] .

إن مجرد استخدامنا لمصطلح « النكبة » في الاشارة الى حرب حزيران ونتائجها ينطوي على الكثير من منطق التبرير والتهرب من المسؤوليات والتبعات لأن من تحل بـه النكبات لا يعتبر مسؤولاً عنها وعن وقوعها ، وان كان كذلك فإن مسؤوليته تعتبر جزئية جداً بالقياس إلى هول النكبة وعظمها . لذلك درجنا على نسبة النكبات إلى الدهر والزمان والطبيعة أي إلى عوامل لا سيطرة لنا عليها ولا يمكن ان نحاسب على مجاري احداثها .

بلغ هذا الشطط في التفكير حول الهزيمة وأسبابها مداه الاقصى في الهراء الذي نجده في كتاب الدكتور كمال يوسف الحاج (رئيس قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانية). يجزم الدكتور الحاج بكل جدية أن الجواب الصحيح على تساؤلنا : « لماذا أصر اليهود على المجيء إلى فلسطين » هو « لأنهم يريدون تكذيب المسيح ». [٨] يعمل هذا الكاتب على رسم صورة خرافية للقضية الفلسطينية

---

(٧) المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٨) « حول فلسفة الصهيونية » ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٨ .

ولطبيعة الصراع العربي – الصهيوني تفرغه كلياً من جميع محتوياته الواقعية والتاريخية الملموسة فيتحول بذلك إلى مشكلة غيبية دينية لا قبل لنا بها ولا قدرة لنا ، في الواقع ، على مواجهتها أو التصدي لها . يقول مؤلف الكتاب في رسم هذه الصورة :

الصراع القائم اليوم تحت سمائنا، لا يدور بالواقع بين اليهود والعرب (كما تدعيه الدبلوماسية الصهيونية) وإنما هو دائر بالأصل بين اليهود والمسيح أولاً ...[9]

وبفعل هذه الرؤيا الأسطورية المذهلة « لحقيقة » القضية الفلسطينية تحول العرب ، بقدرة سحرية ، إلى عامل جانبي وثانوي في « الصراع القائم تحت سمائنا » وعلى الأرض العربية المحتلة . العرب يقفون على هامش هذا الصراع لأن الدكتور الحاج اكتشف حقيقة مدهشة وهي أنه بعد ان عجزت اليهودية العالمية

عن أن تنال من يسوع الناصري في حياته ..
صوبت كل دهائها لتنال من ممثله على الأرض .
عنيت بهقداسة البابا كرأس للكنيسة[10].

---

(٩) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(١٠) المرجع السابق ص ٩ . راجع ايضاً كتاب ايليا ابو الروس «اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية »، دار الاتحاد، بيروت، ١٩٦٤ .

وحسبنا أن نقول هنـــا أن الدعاوة الصهيونية نفسها لم تصل، في يوم من الأيام ، في تزييفها للقضية الفلسطينية إلى حد حذف العرب من الوجود باعتبارهم الطرف الثاني الرئيسي الوحيد في هذا النزاع التاريخي على أرض فلسطين . تعرف الصهيونية العالمية تماماً من هم أعداؤها وهي لم تستعمر فلسطين بخوض معـــارك دونكيشوتية ضد قوى خفية غيبية لا يمكن تحديدها أصلا .

وقد أسفنا حين وجدنا أن مفكراً لبنانياً تقدمياً مثل السيد حسين مروّة قد انساق مع هذا التيار ، في بادىء الأمر على الأقل ، وحاول إزاحة مسؤولية الخامس من حزيران عن موضعها الحقيقي وبين العرب أنفسهم بوضعهم التاريخي والاقتصـــادي والحضاري الراهن تجاه اسرائيل . فبعد أن هاجم هذا المفكر من سماهم « بالمشككين » ونعتهم ببعض النعوت المعروفة (طابور خامس وغيره) قال :

> فلماذا — إذن — يعنون تشكيكـــاً بالإنسان العربي إلى هذا الحد ، لأن هزيمة عسكرية نزلت به لأسباب لا يتحمل تبعاتها سوى أفراد قلة لا تربطهم بالانسان العربي النوع غير رابطة النسب وحدها ؟ (١١) .

---

(١١) « مجلة الآداب » ، بيروت ، تموز — آب ، ١٩٦٧ ، ص ٣٠٦ .

وواضح أن هذا الكلام يكتنفه الغموض والابهـــام ـ لا يفيدنا شيئاً حول أصحاب المسؤولية الحقيقيين وإنما يفيـــدنا فقط في إزاحة المسؤولية ، بصورة غامضة مبهمة ، عن الانسان العربي النوع على حد تعبير حسين مروة .

يكن من الاجحاف إن لم نستدرك هنا ونذكر أن ثمة اتجاهاً واضحاً الآن ، في التعبير والتفكير العربيين حـول الخامس من حزيران وذيوله ، يميل نحو العودة عن الشطط والمبالغة في التهرب من المسؤولية وإزاحتها عن النفس ، غير ان هذا جاء متـأخراً بضعة أشهر على الصعيدين الرسمي وشبه الرسمي ، وهو يحـاول تناول المسؤولية العربية في أحداث حزيران المفجعة بحذر وبطء شديدين ويقترب من الاعتراف بها بتحفظ وتردد وبصورة جزئية لا تنم عن جرأة ومصارحة حقيقية مع النفس. وأبرز مثل على هذا الاتجاه مقالات هيكل في الاهرام التي تناولت هـــذا الموضوع بدون ان تتعدى خدش سطحه وبدون النفاذ إلى جوهـــره ، وذلك بعد مضي عدة شهور على الحرب . وأقـدم فيما يلي بعض الأمثلة لتبيّن ما أعنيه : اعترف هيكل بالدور الذي مثله القصور الفني والتدريبي في خسارتنا فكتب قائـــلاً : « لكنّ الحرب الحديثة ليست حشداً لأكبر كمية من السلاح ، وإنما مقـــدرة استخدام الســـلاح » . وهنا ساق قول أحد المراقبين المحايدين لأرض المعركة :

أحسست اني اجد على أرض المعركة آثار قوة ضخمة ، لكن اليد التي كانت تمسك بهذه القوة لم تكن عليمة بكل إمكانياتها [١٢] .

كما قال :

لقد كنا أمام عدو متعلم وعصري ، وهذه العبارة وحدها قد تغني عن كل تفصيل قد يجيء بعدها ، كما أنها تلخص بدقة عناصر التفوق التي أحرزها العدو [١٣] .

ثم استنتج هيكل ما يلي :

إننا أمام عدو متعلم وعصري ، وليس هناك حل آخر أمام الطرف العربي على خط المواجهة الشاملة غير ان يكون هو متعلماً وعصرياً [١٤] .

كما كتب في موضع آخر :

إن بعض عناصر القيادة العسكرية اصبحت

---

(١٢) الاهرام ، ٦ تشرين الأول ١٩٦٧ .

(١٣) الاهرام ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٦٧ .

(١٤) الاهرام ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٦٧ .

في حالة عصبية إلى درجة مقلقة ... وأن
القوات وصلت اليها العصبية ايضاً فتخلخلت[15].

يبدو لي أن هذا النوع من الاعتراف بمسؤولية القصور العربي في النتائج التي توصلنا اليها بعد الخامس من حزيران ليس في مستوى المطلوب على الاطلاق لتحقيق انطلاقة جديدة تتغلّب على الماضي وتتخطاه ، وهو بلا شك ليس ، مثلاً ، في مستوى الوعي للمسؤولية الذي ساد روسيا بعد هزيمتها التي ذكرناها ، علماً بأن هزيمتنا جاءت بعد ما يزيد على نصف قرن من هزيمة روسيا وبعد تجربتين سابقتين مع التحدي الاسرائيلي والتصدي له ومواجهته. إن هذا النوع من الاعتراف العربي بالمسؤولية — في نظري — لم يفارق بعد مستويات التعميم والشمول التي لا تؤذي أحداً ، ولم ينفصل بعد عن أساليب التلميح والتورية وانماط الصياغات المترددة الحذرة المتحفظة التي لا تنفذ إلى لب الموضوع ، أي إلى تفاصيله ودقائقه ووقائعه . ورد معنا قول هيكل « وليس هناك حل آخر أمام الطرف العربي على خط المواجهة الشاملة غير أن يكون هو متعلماً وعصرياً » . وكما أن أحدكم لا يستطيع أن يقع على عربي لا يعتبر نفسه من أنصار الخير والأمومة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك فانه لن يجد عربياً لا يعتبر نفسه من انصار العلم والعصرية والتقدم . على هذا المستوى من

---

(١٥) الاهرام ، ٦ تشرين الاول ١٩٦٧ .

التعميم والتجريد نتفق جميعاً وتبقى خواطرنا مجبورة .

ولكن هذا الكلام لا يفيدنا شيئاً ما لم نطرح المشكـلات المحددة المعينة حول العلم والعصرية وما يترتب على كل منهما من تغييرات جذرية في نفوسنا ومجتمعنا ونسيج حياتنا ! هل نحن مستعدون لتقبّل هذه التغييرات والتبدلات والتنازل عن كل ما كنا نعتز به سابقاً إن تبين أنه يتعارض تعارضاً واضحاً مع العلم والعصرية ؟ فالعلم والعصرية يعنيان ، مثلاً ، العلمانية وفصل الدين عن الدولة . من من المسؤولين تجرأ على المجاهرة بذلك بدلاً من تغليف الحقيقة داخل تعميات فضفاضة حول العلم والعصرية ؟

أضرب مثلاً صغيراً آخر : يستورد لبنان ٤٠٠ الف صندوق ويسكي سنوياً (١٦) . ولكن لا يوجد في لبنان حتى اليوم نظام مدرسي رسمي إلزامي يكفل تعليم جميع ابنـائه بدون مقابل حتى نهاية المرحلة الثانوية . على فرض أنه طلب إلى لبنان اليوم، باسم العلم والعصرية طبعاً ، أن يضحي بالجزء الأكبر من تكاليف الـ ٤٠٠ ألف صندوق من الويسكي المستوردة سنوياً ليحوّلها إلى تمويل التعليم الإلزامي الشامل ، هل يكون جوابه بالنفي أم بالايجاب ؟ أترك الاجابة على هذا التساؤل إلى ضمير كل لبناني ، مع التذكير بأن الاحتلال ما زال قائماً . وسأعود إلى الكلام عن مسألة العلم الحديث وتفاصيلها في موضع آخر من هذه الدراسة .

---

(١٦) لبنان، المجلس الاعلى للجمارك «احصاءات التجارة الخارجية».

II

انتقل إلى معالجة عدد من النماذج المحددة اعتقد أنها تمثل السبل التي سلكناها في إزاحة المسؤولية عن أنفسنا وعن تنظيماتنا وواقعنا بالنسبة لأحداث حزيران ونتائجها السلبية التي نزلت بالعرب .

١) لقد قيل الكثير في وصف حرب حزيران مع اسرائيل بأنها عدوان وعدوان اعتمد على عنصر الغدر والمفاجأة . لنقف لحظة نمحّص هذه الأوصاف وحقيقة انطباقها على الواقع .

كان العرب وما يزالون يعلنون دوماً أنهم في حالة حرب مستمرة مع اسرائيل لأنّ خلقها كان في الأصل عدواناً على الأراضي العربية والسيادة الفلسطينية على الارض المحتلة ، وهذه حقيقة لا جدل فيها ولا مساومة حولها بالنسبة للعرب . ولكن هل يوجد في الحقيقة ثمة شيء اسمه « العدوان » بيننا وبين طرف آخر نعتبر أنفسنا في حالة حرب دائمة معه ؟ بل لا نعترف بشرعية وجوده أصلاً ؟ الحرب هي الحرب، ويمكن ان يكون فيها خرق لاتفاقيات هدنة عقدها الطرفان لأسباب اضطرارية أو خرق

لاتفاق على وقف اطلاق النار بينهما لفترة معينة، ولكن لايمكن ان يكون في الحرب عدوان . فبعد أن فضحت حرب حزيران التقصير العربي المريع في مواجهة المسؤوليات التي تتضمنها حالة اعتبار أنفسنا في حرب مستمرة مع اسرائيل ، حاولنا تورية التقصير والتملص من مسؤولياتنا بقولنا : لقد اعتدت اسرائيل علينا وكأننا كنا دوماً ننتظر منها حسن الجوار والمعاملة الطيبة. أضف إلى ذلك أن الهجوم الجوّي الاسرائيلي المركز الذي دمر سلاح الطيران المصري وحسم المعركة منذ بدايتها لا يمكن اعتباره غدراً إلا إذا قسنا الصراع بيننا وبين العدو الاسرائيلي بمعايير النزال والفروسية حيث يفترض ان تتكافأ الفرص والأسلحة بين الخصمين المتنازلين حتى تكون الغلبة في المعركة للأجدر والأشجع . أما بالنسبة للحرب في النصف الثاني من القرن العشرين فان ما نسميه نحن بالغدر قد أصبح فناً هاماً من فنون الحرب الحديثة يسمى « بالهجوم المفاجيء » (Surprise Attack) في قاموس الاستراتيجية الحربية الحديثة . والرد على هذا التكتيك أصبح معروفاً أيضاً في قاموس الاستراتيجية الحربية ومن بديهياته أن يبقى قسم من طائراتنا ، عند أول إشارة بأن الحرب أصبحت وشيكة ، في الجو باستمرار وبدون انقطاع حتى لا تباغت وهي جاثمة على الأرض أو في طريقها إلى سماء المعركة . وبديهي ان اتباع مثل هذا التكتيك المضاد لا يعني ضمان النصر بالنسبة للعرب ولكنه يعني، على أقل تعديل،

أننا نكون قد خسرنا المعركة خسارة وليس بفعل الانهيار أمام هجمات العدو، كما نكون قد أرغمناه على دفع ثمن انتصاره غالياً جداً. يبدو لي أن التفكير العسكري العربي كان لا يزال يتصور حرب الطائرات الحديثة على نسق المعارك التي دارت بين طياري سلاح الجو الالماني وطياري سلاح الجو البريطاني في الحرب العالمية الثانية أي على انها معارك جوية بين تشكيلات من الطائرات . وفي مقابل هذا التفكير العسكري العربي توصلت اسرائيل الى مستويات متقدمة جداً في تصورها للحرب الجوية تخطت كلياً المرحلة التي ظل العرب ثابتين عندها . وقد لخص الدكتور جمال حمدان هذه الحقيقة بقوله : « انه كان لقاء بين فنون واساليب واسلحة الحرب الثانية أو ما بعدها من جانبنا ، وبين فنون واساليب واسلحة الحرب الثالثة من جانب امريكا واسرائيل [١٧] ».

بعبارة اخرى لا يجوز لنا ابداً أن نجد الاعذار لأنفسنا بغية تسويغ اخفاقنا بالتشديد على عنصر الغدر والمفاجأة ، لأن القادة العرب كانوا دوماً يعلنون ان جهودهم موجهة الى الهدف الأكبر وهو معركة التحرير ولا يليق بنا اصلاً ان نفاجأ بالنسبة لمعركة نحن كنا نريدها وما زلنا ننشدها ونستعد لها ونعلم علم

---

(١٧) مجلة « الكاتب »، القاهرة، آب ١٩٦٧ .

اليقين انها آتية لاريب فيها،ان أرادها العدوأم لم يردها. والشيء ذاته يقال بالنسبة لما قاله البعض من العرب ، تهرباً من المسؤولية ومن الاعتراف بالعجز والتقصير ،بان المعركة لم تكن «متكافئة» و «عادلة» . ونردد مرة أخرى أننا لم ندخل في مبارزة فروسية مع اسرائيل تفرض على الطرفين المتقاتلين احترام التكافؤ من حيث الفرص والأسلحة والمعدات ، توجب القتال وجهاً لوجه ، وتستبعد المباغتة والمفاجأة ، فتنتصر بذلك الشهامة والعدالة ! لقد دخلنا معركة طرحناها نحن على أنها معركة وجود أو عدم وجود ، أو بالأحرى معركة محو وجود ، أي معركة مصير ، ومن يدافع عن وجوده ومصيره لامجال لديه للتفكير «بالتكافؤ» «والعدالة» فكان النابالم هذه المرة وقد تكون القنابل النووية في المرة القادمة .

في الواقع ان ما قيل عن الغدر بالنسبة للهجوم الاسرائيلي لا ينم الا عن محاولة هزيلة لإزاحة المسؤولية عن النفس ورفع المعنويات فحسب بل يبين ايضاً ان العرب دخلوا الحرب وعقلية الفروسية في القتال لا تزال تسيطر على عقولهم وردود فعلهم . وليس ادل على ذلك من العبارات والافكار والاحكام والقيم التي سمعناها من اذاعاتنا والتي ترددت في صحفنا واقوالنا حول صليل السيوف ، والكر والفر ، ورباط الخيل والمفاهيم الفردية العشائرية لمعاني الشجاعة والاستبسال والشرف والحمية والغدر والدناءة والمواجهة المباشرة في القتال . هذه هي العوامل والقيم

التي لا تزال تحرك مشاعر العربي وتلهب خياله بالرغم من أنــه حارب معركة لامواجهة فيها ولافروسية ولامبارزة، كانت معركة قوامها انقضـــاض الطائرات بسرعة هائلة ومهارة فائقة على طائرات اخرى جاثمة في ارضها. وكان قوامها مدرعات ضخمة تتناطح وتتقاذف اللهب مع مدرعات العدو وفقـــاً لمخططات وضعت في غرفة العمليات الحربية. في هذا النوع من الحروب لا تلعب الشجاعة والبسالة والحمية بمعانيها التقليدية الا دوراً محدوداً وصغيراً ولا يمكن للافكار الفروسية حول الشهامة والرجولة والغدر والدناءة ان تقوم بأي دور هام في حرب تحسمها قنابل النابالم والصواريخ الموجهة التي لا يمكن الافلات من دمارها مهما كان الفرد شجاعاً وشهماً. كان يفترض فينا أن نعد العدة الكافية في العشرين سنة الماضية لحرب تتوقف الغلبة فيها على مقـــدرة الانسان العربي القابع وراء الآلة المدرعة في استخدام طاقاتهـا وقدراتها الى اقصى الحدود الممكنة وعلى مقدرته في الاستجابة السريعة المرنة لتحديات المعركة ليتمكن من ضرب العدو قبل أن يلحق به الدمار أولاً. ولكن عوضاً عن ذلك وجدنا انفسنا في حرب تنقلت فيها القطعات العسكرية العراقية، مثلاً، نهاراً وبدون غطاء جوي او حماية ارضية مما سبب اصابتهـا بخسائر فادحة وهي في طريقها الى الميدان في طريق صحراوية مكشوفة، وفي حرب أقمنا بمناسبتها الاحتفالات المتعددة للقطعـــات العسكرية التي تقرر حشدها للقتال حيث القيت الخطب الرنانة

فقدمت بذلك اذاعاتنا خدمة كبيرة لاستخبارات العدو بأن اراحته من الجهود المطلوبة لمعرفه اسم الوحدة والتشكيل الذي سيجابه في القتال ومقدار قوته في الميدان كما زودته حتى بمواعيد تنقلات تلك القطعات فقصفتها الطائرات الاسرائيلية قبل وصولها إلى ساحة القتال . وجدنا انفسنا في حرب قال فيها عبد الرحمن عارف لجيوشه الزاحفة إلى الجبهة كونوا اشداء مع العدو ولكن لا تقتلوا امرأة أو ولدا . كان باستطاعة الخلفاء الراشدين أن يعطوا مثل هذه الوصايا لجيوشهم ومحاربيهم ولكن ايجوز لقادتنا أن يقدموا نفس النصيحة وبنفس الكلمات تقريباً الى جيوشنا بعد اربعة عشر قرناً علماً بأن جزءاً كبيراً من جيش العدو مؤلف من النساء ! الم يخطر ببال المسؤولين منا كيف يستطيع هذا الجندي ان يدمر مدن العدو بطائراته ويقصف قراه بمدفعيته بدون أن يمس الاطفال والنساء بسوء.؟ بطبيعة الحال اننا لا نريد لجنودنا ان يقترفوا الفظائع أو أن يتركوا وراءهم المذابح غير أن هذا الكلام على أفواه قادتنا له دلالة هامة حول طبيعة العقلية التي دخلنا بها المعركة وتعلمنا درساً قاسياً من جرائها . اضف الى ذلك أننا وجدنا أنفسنا في حرب كانت فيها الجماهير العربية أبعد ما تكون عن حالة الاستعداد النفسي وغير النفسي للمعركة إذ أن اجهزتنا الاعلامية غرست الفكرة في رؤوسنا جميعاً بأن حرب تحرير فلسطين ليست إلا « مشواراً » أو « فسحة » بسيطة إلى تل ابيب يقوم العرب بعدها بدفن العدو في

البحر . . وهذا كل ما في الامر وهذا ما تعنيه الحرب .

في الواقع يبدو أن العقلية التي نظرت إلى معركة التحرير على انها مجرد « مشوار » لم تكن محدودة ضمن اوساط الاذاعات العربية بل كانت متفشية على أعلى المستويات القيادية العربية . ذكر رئيس وزراء الاردن الذي رافق الملك حسين في ٣٠ / ٥ /١٩٦٧ إلى القاهرة لتوقيع اتفاق الدفاع المشترك الشهير انه حين اخذ الرئيس المصري يناقش العسكريين المصريين والاردنيين الموجودين في قدرة العدو وقوة استعداداته .. خيّل لي حين ذاك ، مما قاله المشير عامر ، ان القوات المصرية ، تشد ازرها القوات الاردنية ، ستحقق اهدافها العسكرية — لو وقع صدام ـ داخل اسرائيل ، في مدى ايام ، وإن المعركة لن تكون اكثر من نزهة سهلة لتلك القوات الجبارة الضاربة وينتهي كل شيء ! *

وبالاضافة الى كل ذلك لقد كان للارتباطات العشائرية والقبلية والعائلية المذكورة وقيمها التي لاتزال تسيطر على عقلية العربي وتتحكم بأنماط سلوكه تأثيراتها السلبية الخطيرة ، أثناء الحرب وبعدها ، على نفسية الانسان العربي العادي وعلى نزوحه من الأراضي المحتلة وعلى ردود فعله المشتتة في وجه الغزو الاسرائيلي . وبسبب فقدان المؤسسات الاجتماعية والمنظمات

* ـ سعد جمعة، « المؤامرة ومعركة المصير » ، دار الكاتب العربي ، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٧٢ .

السياسية والاحزاب العاملة بين الجماهير ، كان المواطن العربي يقع ، في ساعات الخطر الداهم ، تحت سيطرة عفوية القبلية والعشائرية ويتصرف وفقاً لها فيشعر بأن ارتباطه بأهله وجماعته أقوى من ارتباطه « بالارض »، وصلته بعشيرته وبناته واقربائه اخطر وأهم من صلته « بتراب الوطن » المهدد . وقد أبرزت الدراسة الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية حول النازحين وأسباب نزوحهم هذه الناحية من الموضوع بكل وضوح. والجدير بالذكر أن الدراسة المذكورة تعتبر أول بحث تجريبي علمي اجري عن النازحين الفلسطينيين واعتمد مناهج « بحوث الميدان » و « المسح الاجتماعي » المعروفة في حقل الدراسات الاجتماعية . اشتملت هذه الدراسة التجريبية على الحقائق التالية بالنسبة لما قلناه عن تأثير القيم القبلية على سلوك الانسان العربي في مواجهة الحرب المفاجئة والخطر الذي يتهدد ارض الوطن :

ان الروابط العائلية هي الاقوى والأوثق (من روابط الارض أو القومية) ، وقد كانت هذه الروابط عاملاً مهماً في النزوح لا في البقاء كما ذكرنا سابقاً . إن عدداً كبيراً من النازحين تركوا خوفاً على بناتهم ونسائهم واطفالهم وشبابهم وليس خوفاً على انفسهم . الواقع هو أن مفهوم « العرض » عند العرب لعب دوراً

> هاماً في عملية النزوح . يقول نازح قابلناه في مخيم زيزياء معبراً عن هذا الدور بالشكل التالي: « شردنا بعرضنا ». في المقابلة بعد المقابلة كانت العائلات النازحة تذكر أن هذا السبب كان بين الاسباب الرئيسية لنزوحها [١٨] .

وبطبيعة الحال لم يأت أحد على ذكر هذه الوقائع ليلوم المواطن العربي الأعزل الذي واجه الجيوش الغازية وهو تحت تأثير صدمة هائلة وبدون أي استعداد (نفسي وعقلي ومعنوي) على الاطلاق لمواجهة الاحتلال وعواقبه . اننا نقر واقعاً مؤسفاً فقط يتلخص في أن مستوى النضج الاجتماعي والوطني عند الانسان العربي ، حتى في البلدان العربية الاكثر تقدماً ، لم يبلغ بعد الحد الذي يجعله يتخطى مستوى الولاءات العائلية والعشائرية وقيمها التقليدية ، والذي يجعله يدرك ان الحروب كثيراً ما تؤدي إلى الاحتلال والاعتداء على الأعراض ووجود الجيوش الدخيلة على أرض الوطن ، بدون أن ينتج عن ذلك بالضرورة « شرود المواطنين بأعراضهم » ونزوحهم وتركهم الارض خالية من السكان تماماً كما كان يريدها العدو . وقد بينت الدراسة المذكورة أن المسؤولية في هذا العجز ترجع إلى فقدان المؤسسات الاجتماعية

---

(١٨) « النازحون اقتلاع ونفي » ، بقلم الدكتور حليم بركات والدكتور بيتر ضود ، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

والمنظمات والاحزاب التي يفترض فيها أن تحل محل الروابط القبلية والعائلية في الدول القومية الحديثة . تقول الدراسة عن ذلك :

> هنالك ايضاً سبب آخر غير مباشر نعتقد انه على جانب كبير من الاهمية ، وهو فقدان الروابط الاجتماعية ضمن مؤسسات ومنظمات واحزاب . الروابط الوحيدة الفاعلة في المجتمع العربي هي الروابط العائلية .ان هؤلاء النازحين لا ينتمون على الاغلب إلى أي مؤسسة غير رسمية أكانت دينية أو سياسية أو إجتماعية التي يمكن أن يلجأ اليها الفرد عندما تحل النكبات فتساعده على مواجهتها . لم يجد النازحون من يلتجئون اليه من اجل النصيحة والاستفهام والاسترشاد . وقد انحلت العلاقات الاجتماعية بسهولة ، كانما المجتمعات المحلية كالقرى أصبحت دون نواة . كأنما القرى والمدن سلحفاة فقدت صدفتها فجأة فلا شيء يحميها غير الهرب. (ص ٤٥) .

بعبارة اخرى لا تزال التبعة في المجتمع العربي تقف عند حدود الاسرة ولا تتجاوزها لتشمل الامة بأمرها والوطن بكافة

ارجائه حتى ضمن حدود الاسرة وقيمها الضيقة نواجه سلماً من الأولويات : الأبناء أولاً والإخوة ثانياً وابناء العم ثالثاً وابناء الخال رابعاً . والمواطن العربي لا يزال يعتبر نفسه مطمئناً هادىء البال نسبياً ما دام هو وابناؤه واخوته وابناء عمه وخاله قد شبعوا واكتسوا وظفروا بنصيب معقول من متطلباتهم في هذه الحياة. نحن نعلم كيف تصرف المواطن العربي في المدن عشية حرب حزيران حين شعر بامكان حدوث نقص في بعض البضائع والمواد الغذائية المعروضة في السوق . كان كل واحد منا يجري قبل سواه ، بل على حساب سواه ، من المواطنين في الاسواق ليبتاع ويكدس في بيته أكبر كمية ممكنة من البضائع والاغذية ليشعر بعدها بالارتياح باعتباره قام بتأمين حاجات اسرته القريبة ولو على حساب غذاء الاخرين وحرمانهم . في الواقع تباهى هذا المواطن بين اقربائه بحنكته وشطارته في تدبير كذا كيس من الطحين وكذا كيلو من الخبز في ساعات الحرج . ما دامت الاسرة بخير فكل شيء بخير . أما التأثير السلبي الذي يتركه هذا النوع من السلوك على حالة البلاد الغذائية عامة وعلى غير الأقرباء من المواطنين الذين سبقناهم بشطارتنا في احتكار البضائع في بيوتنا فهي اعتبارات لا تدخل في افقنا العشائري الضيق ولا علاقة لنا بها في ساعات الخطر والحرج [١٩] . ولا

---

(١٩) راجع مقال زكي نجيب محمود « مواطن الدولة العصرية » ، « الفكر المعاصر » ، القاهرة يوليو ، ١٩٦٨ .

حاجة للزيادة في ضرب الامثلة لأن كل واحد منـــا قادر على استنباطها بشيء من التأمل في نفسه ومحيطه .

٢) يصعب علينا أن نجد تقصيراً أو عجزاً أو خطأ كشفته حرب حزيران في التنظيم والاستعداد والتخطيط العربي لم ينسبه بعض العرب إلى الاستعمار والامبريالية الدوليـــة وكثيرون هم الذين ازاحوا المسؤوليـــة في الهزيمة عن انفسهم باسقاطها جملة وتفصيلاً على الاستعمار . ولنسأل أنفسنا هنـا : ألم يكن العرب الذين دخلوا معركة الخامس من حزيران بعد أن أستعدّوا لها ، واعين تمام الوعي أن إسرائيل مرتبطة ارتباطاً عضوياً ووثيقاً بالاستعمار . لقد كنا - والحق يقال - مـــدركين كلّ الإدراك طبيعة المساعدات الوافدة إلى إسرائيل وأن اسرائيل ستأخـذ زمام المبادرة - بعد إغلاق خليج العقبة - بضربة حربية شديدة تحسم باقي المعركة لصالحها ، ولم يترك دايان في مؤتمراته الصحفية واحاديثه المختلفة ، قبل المعركة بقليل ، مجالا للشك بهذه الحقيقة . كما أن الرئيس عبد الناصر صرّح بأنه كان متيقناً من أن موعد الضربة الإسرائيليـة الأولى سيكون حوالي ٥ حزيران . كما أن الولايات المتحدة لم تترك مجالاً للشك في نواياها نحو العرب ومدى استعدادها لدعم إسرائيل والمحافظة عليها وعلى حدودها . كلّ ذلك كان واضحاً للعرب وقادتهم ، ومـــع ذلك قدّرنا أن باستطاعتنا خوض المعركة وإحراز النصر ، وأخطأنا التقـدير ، ولا يجدينا نفعاً اليوم أن نلوم الغير بكل هذه العصبية . فالاستعمار

بعد الخامس من حزيران هو الاستعمار الذي عرفناه وخبرناه قبل الخامس من حزيران ولا يلام الاستعمار إن هو تصرف تماماً كما كان متوقعاً له أن يتصرف . إذ لا تلام الذئاب إن هي تصرفت تصرف الذئاب ، بل يلام من كان يفترض فيه أن يحمي الارض من هجمات الذئاب وأثبت مرة بعد مرة بأنه لم يحقق بعد مستوى من الفعالية يمكنه من حمايتها بعد إدعائه وتبجحه بالعكس تماماً. وينتج عن هذا المنطق التبريري الذي يدفع باللائمة على الاستعمار بعد الخامس من حزيران وهم خطر آخر هو التمييز بين ما يسمونه بقوة إسرائيل الذاتية وبين قواها غير الذاتية ، والاستنتاج من ذلك بأن العرب سيتغلبون حتماً على إسرائيل لو واجهوها بطاقاتها الذاتية فحسب . تجلّى هذا التمييز بين نوعي القوة الإسرائيلية في فقرة وردت في محاضرة القاها العميدالركن حسن مصطفى في النادي الثقافي العربي تحت عنوان « دروس عسكرية من النكسة » . قال :

> لا يخامرني أدنى شك في أننا سنتغلب على إسرائيل في يوم من الأيام ، وإنني لعلى يقين بأن إنتصارنا عليها محتم منطقياً وتاريخياً . فليس من المعقول ولا من الطبيعي أن تتغلب دولة صغيرة كإسرائيل على الدول العربية كلها في آخر الأمر وأن تخضع العالم العربي باسره إلى سيطرتها ونفوذها إلى الابد بل إن الامر

المعقول والطبيعي هو أن يتغلب العرب على إسرائيل إذ إن جميع عوامل التفوق الطبيعية في جانبهم [٢٠].

قد يبدو هذا الكلام معقولاً ،وقد تبدو هذه التفرقة بين قوة إسرائيل الذاتية وغير الذاتية سليمة على المستوى النظري ولكن عند وضعها على المحك نجد أنه لا قيمة لها على الإطلاق لأن طاقة إسرائيل الذاتية ، من الناحية العملية الحاسمة ، في اية معركة تخوضها مع العرب هي مجموع القوى التي باستطاعتها أن تقذف بها في حلبة الصراع لتحقيق النصر مهما كانت مصادر هذه القوى ، أي أنه لا فارق في ذلك سواء كانت نابعة من رقعة الارض الفلسطينية المحتلة أو من سفينة « ليبرتي » في عرض البحر أو من تفوق الفرد الإسرائيلي على العربي من الناحية التقنية والفنية والتدريبية . وكل تصدٍ عربي لإسرائيل لا يحدد قوتها الذاتية على هذا الأساس يبقى مقصّراً وهزيلا لأنه لا يقدر طاقات العدو حق قدرها كما أنه ينطوي على شيء من خداع النفس وتعزيتها حول إمكانية مواجهة إسرائيل ، في يوم من الايام « « بمفردها » أو « بذاتها » . إننا نوهم أنفسنا بالتطلع إلى تغيّرات في العالم حولنا تسمح لنا أن نستفرد إسرائيل « بذاتها » بينما الأجدر بنا أن نتطلّع إلى تبديل أنفسنا وواقعنا

---

(٢٠) مجلة «الثقافة العربية» ،بيروت، كانون الاول، ١٩٦٧ ،ص٣٥٤.

ومجتمعنا بحيث نعدّ العدة على أساس مواجهة إسرائيل بجميع طاقاتها وفي عزّها وعنفوانها . لا شك أن إمكانات العالم العربي وطاقاته أعظم بكثير من امكانات وطاقات رقعة الأرض المحتلة القائمة عليها إسرائيل ، غير أن حساب ميزان القوى على هذا النحو هو بمنتهى السخف والسذاجة ولا ينفعنا إلا من باب جبر الخواطر وتهدئة النفوس .

أما قول العميد الركن : « انني لعلى يقين بأن انتصارنا عليها محتم منطقياً وتاريخياً » وقوله : « فليس من المعقول ولا من الطبيعي أن تتغلب دولة صغيرة كاسرائيل على الدول العربية كلها في آخر الأمر » فهو كلام مطمئن ولكن اللجوء إلى الحتميّة التاريخية والمنطقية في هذا الموضع ينطوي على اخطار اهمها التهرب من تحمل مسؤولية ما حدث ومسؤولية تحديد الخطوط العريضة لما سيحدث على ضوء ما كان قد حدث فعلاً . وثمة خطر آخر ينطوي عليه هذا الكلام عن الحتمية هو الاستنتاج بأن الواقع العربي سليم في جوهره لأنه لم يكن مسؤولاً في الحقيقة عما حدث في الخامس من حزيران - المسؤول عنه هو الاستعمار مثلاً - ولذلك لا يضير العرب أن يستمروا على ذات النهج الذي كانوا سائرين عليه لأن الامور بطبيعتها والأحداث التاريخية بمجراها الحتمي سوف تؤدي بهم في النهاية إلى الانتصار على إسرائيل .

قد يبدو أنه ليس من المعقول ان تتغلب دولة صغيرة مثل

اسرائيل على العرب في نهاية الامر، غير أن التاريخ لا يتقيّد دوماً بما قد يبدو للانسان معقولاً وطبيعياً في فترة زمنية معينة. لم يكن من المعقول أن تتغلب اليابان على روسيا ولكنها فعلت، ولم يكن من المعقول أن يشلّ سلاح الطيران المصري بضربة واحدة ولكن هذا ماحدث، وليس من المعقول أن تسيطر دولة صغيرة جداً مثل بريطانيا على امبراطورية لا تغرب عنها الشمس بمساحاتها الشاسعة وطاقاتها الكامنة وأعداد سكانها الهائلة ولكنها فعلت لمدة ثلاثة قرون. كما أنه ليس من المعقول ولا من الطبيعي أن يهزم العرب أمام اسرائيل ثلاث مرات متتالية في اقل من ربع قرن ولكن ذلك قد حدث، مما يبيّن ان مقاييسنا لما هو معقول وطبيعي لا تزال ذاتية وهمية غير موضوعية وغير علمية. المهم في الموضوع هو أن الخطر الذي أشار اليه العميد الركن حول تغلب دولة صغيرة كاسرائيل على الدول العربية كلها في آخر الأمر يظل خطراً قائماً ولا يجوز لنا ابداً أن نتهاون في تقديره متذرعين بما يبدو لنا أنه معقول ومنطقي أو محتم تاريخياً لأن لا العقل ولا المنطق ولا الحتمية التاريخية تستبعد نهائياً تحقّق اسوأ الاحتمالات وابشعها في مجرى الاحداث لتصبح بذلك واقعاً تاريخياً راسخاً. المشكلة إذن ليست في لوم الاستعمار الذي خلق اسرائيل وثبتها، وانما في تحويل الانسان العربي والمجتمع العربي إلى طاقات فعالة تستطيع تحمل مسؤولية مواجهة الاستعمار كما يتجسد في

اسرائيل . المشكلة هي مدى قدرتنا على تحويل ما كنا نعرفه من حقائق عن الاستعمار قبل الخامس من حزيران الى جزء من استراتيجية العمل العربي على مستوى التنفيذ الفعلي والواقع المحسوس . وليس أدل على ضعف هذه القدرة من أنه حين اتخذت القيادات السياسية في القاهرة قرارها النهائي بضرورة تلقي الضربة الأولى وتحمل عبئها على أساس علمها التام بنوايا الاستعمار نحو العرب ونوايا اسرائيل في الهجوم المفاجىء، تبين فيما بعد أن الاجهزة التنفيذية لم تكن في مستوى هذا القرار على الاطلاق أي انها لم تتمكن من ترجمته إلى واقع قائم أي الى تلك الاجراءات العملية الكفيلة بتخفيف حدة الضربة الأولى إلى أقصى حد ممكن ، وإلى تلك الخطوات العملية القادرة على تطويق مضاعفاتها وحصرها في أضيق نطاق ، لتتمكن القوى العربية بعدها من شنّ هجوم معاكس يضمن لها نتائج عسكرية أفضل إن لم نقل النصر التام . إن أنحينا باللوم على الاستعمار أم لم نفعل تبقى المشكلة الاساسية هي فعالية الانسان العربي والمجتمع العربي في مواجهة تحديات الحاضر واخطاره ولا شك أن التخلف العربي الانتاجي والتقني والعلمي والتخطيطي والقيادي كامن ، الى حد كبير ، خلف فقدان هذا النوع من الفعالية الايجابية التنفيذية عند العرب اليوم . يحدد المفكر الثوري الشاب ريجيس ديبريه خط العمل للمستقبل بالكلمات التالية :

ان مهمتنا جميعاً النضال من أجل الفعالية إن البحث عن الفعالية يستقطب كل من كانت له ذرة من ضمير ، وبجميع الوسائل الممكنة في ميدان ليس للنظرية المجردة فيه ـ لحسن الحظ ـ المركز الاول .. بعد كل هذه السنين من العبارات الجوفاء ، ومن الوعود الكاذبة ومن البرامج التي لا تتحقق ، فان الحاجة الملحة الى الفعـاليـة ، باتت تضرب الأبواب بشدة ، غير أن هذه الحاجة إذا لم تتزاوج مع العقل ، فانها لا تنجب اية ثمرة [٢١] .

٣) من أهم الاساليب الشائعة في تبرير الهزيمـة وأزاحـة المسؤولية واسقاطها على الغير الرأي الشائع بأنه لو اتخـذت القاهرة زمـام المبادرة في بدء المعركة وضربت سلاح الطيران الاسرائيلي على نحو ما فعلته اسرائيل بالطـيران المصري لانعكست الآية وانتصر العرب . أي أن الفارق بـين النصر والهزيمة في هذه الحرب لم يكن يتوقف الا على قرار سياسي أو على خطأ بسيط في التقدير، فلو قمنا ، مثلاً، في صباح ٤ حزيران بما قامت به إسرائيل في صباح الخامس منه لكانت جيوشنـا الآن في تل أبيبـا . ويعني هذا المنطق التبريري أول ما يعنيه أن

(٢١) «ثورة في الثورة» ، دار الآداب ، بيروت، ١٩٦٨ ، ص ١٩ ، ٢٠ .

الوضع العربي كان سليماً على حاله وأن الهزيمة جـــاءت بسبب ظروف سياسية قاهرة وتافهة أخذناها بعين الاعتبار عوضاً عن أن نتجاهلها .غير أن السؤال الذي ينهض أمامنا هو : هل يجوز لنا أن نفترض،بعد أن عرفنا ما عرفناه عن الحرب ،ان الطيران العربي كان في مستوى من الفعالية تسمح له بأن ينفذخطةالهجوم بالدقة والإحكام والسرعة والاتقان التي اتصفت بها الطائرات الاسرائيلية في هجومها على مطارات الجمهورية العربية المتحدة ؟ يقول العميد الركن حسن مصطفى بكل صراحة في محاضرته التي مرّ ذكرها ما يلي :

> إن مجرد قيام القوات العربية بالهجوم قبل العدو لا يعني أنها ستنجح في هجومها وستنتصر على العدو لا محالة . ذلك لأن نجاحنـــا في الهجوم يتطلب منـــا أن نكون في مستوى المعركة الهجومية من جميع الوجوه (٢٢) .

وبعد أن حلل المحاضر بالتفصيل المقومات الضرورية لنجاح الخطة الهجومية وبيّن كيف ان القوات العربيـة لم تكن في الحقيقة في المستوى المطلوب من الفعالية لإنجاح عملية هجومية من هذا النوع قال بالحرف الواحد :

فاذا لم تتوفر لدينا كل هـذه العوامل أو معظمهـــا

---

(٢٢) « الثقافة العربية » ، ص ٣٦٢ .

فقد نفشل وينقلب هجومنا الى بجزرة لا طائل تحتها [٢٣].

ان هذه الاساليب في تبرير الفشل العربي والتملص من مسؤولياته وتبعاته قد كلفتنا غالياً في السابق والحاضر واعني بالتحديد ان التطهيرات التي شهدتها بعض الجيوش العربية بعد الخامس من حزيران وخاصة جيش الجمهورية العربية المتحدة كان يجب أن تتم بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦ . غير ان النصر السياسي الذي حققناه في حرب السويس بهرنا فأقنعنا انفسنا بأن اجتياح اسرائيل لسيناء في ذلك الحين لم يكن سببه أي ضعف

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ . اقر هيكل بهذه الحقيقة بعد مضي سنة على الهزيمة حيث ذكر بأن النصر العربي لم يكن ممكنا حتى لو كانت الجمهورية العربية هي البادئة بالهجوم على اسرائيل . وقال : « ان مفاجأة صباح ٥ يونيو حطمت الطيران على الارض في ساعات . واغلب الظن وعلى اساس الظروف الموضوعية وحدها — فان هذا الطيران بغير مفاجأة كان سيضرب في الجو خلال ايام على اساس الاوضاع التي دخل بها المعركة ... » (الاهرام ٢٨/٦/١٩٦٨) .. كما قال ايضا : « وثمة حقيقة اولية تبدو الان واضحة بعد سنة ... ان اي انتصار عربي كان صعبا في تلك الايام من سنة ١٩٦٧ » (الانوار ، ٢١/٦/١٩٦٨) . ينبغي الا يمر هذا الاقرار باستحالة النصر العربي بصورة عفوية على انتباه المواطن العربي لانه يخفي وراءه — بالرغم عن الطريقة العابرة والمقتضبة التي اعتمدها هيكل في ذكر الواقع واقراره — حقيقة رهيبة حول العلاقات والصلات الي عاشتها الجماهير العربية بازاء قياداتها ونظمها السياسية واجهزتها الاعلامية في الفترة الواقعة بعد العدوان الثلاثي على قناة السويس . اي كانت الجماهير العربية المضللة في واد ، والانظمة والاجهزة التي يفترض فيها ان تمثلها قابعة في واد اخر . وعليه ما الداعي للدهشة ان حلت بنا الهزيمة على هذه الصورة البشعة !

في أوضاعنا العسكرية او عجز في واقعنا الحاضر . كان العميد الركن حسن مصطفى صريحاً في محاضرته حول هذه الحقيقة حيث قال :

> ويبدو ان النصر السياسي الذي حققته مصر بنتيجة حرب السويس على دول العدوان الثلاثي قد انسى قادتها العسكريين اخطاءهم التعبوية (التكتيكية) في تلك الحرب فأهملوا معالجة تلك الاخطاء ولم يعالجوا كثيراً من نواحي الضعف التي ظهرت في القيادة والتدريب . كما يبدو انهم استصغروا قابلية اسرائيل الحربية وانجازاتها العسكرية في صحراء سيناء عام ١٩٥٦ فعزوا هذه كلها إلى اشتراك بريطانيا وفرنسا معها في الحرب [٢٤] .

٤) ومن علائم اوهام التبرير والتذرع التي شهدناهـــا بعد الخامس من حزيران في مجلاتنا وصحفنا وخاصة في بعض الصحف البيروتية هذا الصراخ المستمر بأن اسرائيل انتهكت الاعراض وخرقت حرمة المساجد وسرقت تاجاً ثميناً من على رأس تمثال للعذراء ، وانها اعتقلت ونفت وقمعت ونكلت ، كل ذلك في محاولة لتغطية الموقف العربي الحرج بشتم العدو وتحقيره وتبيان تفاهته وكأن هذا الصراخ والسباب سوف يؤثران على العـــدو

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

بشيء ، أو يغيران من حقيقة قوته وواقع طاقاته . وأقل ما يقال في هذه الظاهرة هو أنها تنزل بالمعركة القومية المشرفة التي تواجه العرب إلى مستوى التفاهة والسفسطة والاستهتار وانها تعكس علينا ظلالاً سلبية إذ أننا كلما حقرنا العدو وخفضنا من شأنه بدت هزيمتنا افجع وأسوأ مما هي عليه في الواقع، لأننا نكون قدهزمنا امام عدو حقير ومنحط مما يسلبنا كل مبرر معقول يفسر الهزيمة . وعلى كل حال ماذا يفيدنا أن نستعظم اعمال اسرائيل ونستكبر افعالها ونضخمها إلى هذا الحد على جبهاتنا الداخلية ؟ هل كنا نتوقع تصرفاً افضل وأحسن من قبل جيوش الاحتلال الاسرائيلي؟ ام اننا مستعدون للاحتفال والتهليل والتكبير عندما يبدو النصر وشيكاً وغير قادرين على تحمل العواقب المتوقعة للحرب في حالة الخسارة ؟ إذن لنذكر دوماً أن جيش العدو هو جيش احتلال ووظيفته الأولى هي ضرب اية مقاومة عربية بأقسى الأساليب واعنفها، كما أن وظيفة المقاومة العربية وواجبها الأول هو العمل المستمر على طرده من الأراضي المحتلة وإذاقته الأمرين من شدتها وقسوتها وضراوتها . ولا يجوز لنا أن نتصرف وكأننا نتوقع من جيش الاحتلال غير التنكيل والقسوة والقمع والتقتيل. إنه لمن السذاجة أن نتوقع الآن من « دويلة العصابات » ، كما كنا نسميها ، تصرفاً غير تصرف العصابات وأن ننتظر منها التقيّد بشرعة حقوق الانسان . فإذا كانت اسرائيل بالنسبة الينا دولة العدوان في ساعات النشوة والأماني الشاهقه لماذا نتصرف وكأنها شيء آخر في ساعات الاسى والحزن ؟ وحفاظاً على تماسكنا كأفراد وعلى

مواقفنا كجماعة ينبغي ألا تصيبنا الدهشة بعد اليوم حين يتصرف جند الاحتلال كجنود إحتلال . ولنذكر أن قسوة القمع الإسرائيلي هي أفضل وأدق مقياس ودليل على ضراوة المقاومة العربية ، والتناسب بينهما طردي . وقد تجلّى هذا الصراع أكثر ما تجلى في موقفنا من إحتلال مدينة القدس . لقد احاطت صحافتنا القدس القديمة بهالة خاصة وبوأتها مركزاً ممتازاً يميزها ، لسبب من الأسباب ، عن بقية الأراضي المحتلة والمسلوبة والضائعة. وكتبت كثيراً عن اهميتها السياحية المفقودة وخاصة بالنسبة للبنان . يبدو لي أن هذا التفكير ينطوي على وهم خطر لأنه يعمل على تفضيل جزء من الأرض المحتلة على بقية الاجزاء مما يدعم ، بصورة غير مباشرة، الدعوات القائلة بتدويل القدس ، ويعطي انطباعاً عاماً بأن قطعة معينة من الأرض العربية الفلسطينية هي أعز علينا من أية قطعة أخرى، أو أننا ربما قد نفرّط بجزء من هذه الأرض في سبيل جزء آخر أو أننا نصر على تحرير مدينة عربية قبل الاخرى من الاحتلال. لا تمتاز القدس القديمة عن أي شبر آخر من الأرض العربية المحتلة على الاطلاق . انها لا تمتاز بشيء ، من هذه الناحية ، عن حبات الرمل في سيناء أو عن نابلس او عن القنيطرة او عن حيفا ويافا في نهاية المطاف . من المعقول ان نتوقع بعض الكسب الدعائي الاجنبي بسبب وضع القدس الديني ولكن يجب ان نكون واضحين كل الوضوح مع انفسنا حول حقيقة هذا الموضوع وان ندرك بأنه كما ان الشعب الجزائري لم يطالب بالنضال والتضحية ليستمتع بمراسم رفع العلم وإنشاد النشيد الوطني كذلك فإن قضية النضال في سبيل

رفع الاحتلال عن فلسطين لا تتلخص في استرجاع مساجد وكنائس تجذب السواح .

الكسب الدعائي في الخارج مهم جداً بالنسبة لقضيتنا ، غير أن هذا شيء ، ومنطق التبرير وإزاحة المسؤولية الذي يقول بأننا هزمنا لأن دعايتنا لم تكسب الرأي العام العالمي الى جانبنا شيء آخر . إن شعوب وحكومات الدول المتقدمة صناعياً وحضارياً ، سواء في الكتلة الشيوعية أو الرأسمالية ، تجد نوعاً من التعاطف والتفاهم وصلات القربى بينها وبين دولة مثل اسرائيل حققت مستوى علمياً وصناعياً وتكنولوجياً رفيعاً ، أي أن هذه الدول والشعوب ترى في اسرائيل وما حققته على هذا المستوى صورة مصغرة عن نفسها وامتداداً لحضارتها ولكل ما تعتز به من انجازات عصرية وعلمية وتقنية . وقد شددت الدعاية الصهيونية على هذا العامل ، فأظهرت اسرائيل بمظهر المجتمع الديناميكي الحركي المتقدم الذي يشارك في إثراء التراث العلمي والحضاري والأدبي الحديث مثله في ذلك مثل المجتمعات المتقدمة في أوروبا الغربية والشرقية على حد سواء. وحتى البلدان النامية وشعوبها أخذت تنظر إلى اسرائيل على أنها تجربة رائدة في هذا المضمار يحسن التعلم منها والاستفادة من خبراتها . إن تعزيز الدعاية العربية في الخارج لا يغير من هذا الواقع شيئاً لذلك يبدو لي أن بروز دماغ عربي واحد يكون من الطراز الأول في مجال العلوم الطبيعية ، أو ازدهار مؤسسة علمية عربية

واحدة في مستوى مؤسسة وايزمان الإسرائيلية ، أو المشاركة العربية في اغناء التراث الأدبي والعلمي العصري بصورة مستمرة ومتزايدة ومتراكمة ، أو ابتكار سلاح عربي حديث يكون فعالاً لأنه يتناسب مع شروط الصراع الذي نحن فيه أو بروز دماغ عسكري عربي واحد في مستوى الجنرال جياب سيوفر علينا أموالاً طائلة تنفق باسم الدعاية التي لا تستند إلى أساس أو إنجاز حقيقي . إن مثل هذه الانجازات التي عددتها ، على سبيل المثال لا الحصر ، تصنع العجائب في تغيير الصورة التي انطبعت في أذهان الشعوب والدول حول أوضاعنا وواقع قدراتنا . ولا جدال في أن العرب مقصرون جداً في هذا المجال الحيوي إذا قيسوا بأمم أخرى متخلفة تمكنت في فترة قصيرة من امتصاص مقومات الحضارة الحديثة بعلمها وتقنيتها وتنظيماتها ومن ثم الانتقال من مرحلة الانتفاع بثمار العلم واستيراد تطبيقاته العملية واستخدامها بصورة ضحلة الى مرحلة العطاء العلمي الخلاق والنهضة الشاملة في جميع المجالات . هذا هو واقع الحال عندنا بالرغم من أنه مضت على اتصال العرب بمقومات الحضارة الحديثة فترة طويلة نسبياً يرجعها البعض إلى حملة نابليون على مصر ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الدول العربية عن إرسال البعثات إلى البلاد الأوروبية للاستفادة من عناصر الحضارة الحديثة وإدخالها في المجتمع العربي .

ولا بد لي من أن أذكر بهذا الصدد أمراً لاحظته حين زرت

دمشق في شهر رمضان المنصرم لأنه فسر لي ، على بساطته ، نتائج الخامس من حزيران بصورة تفوق بدرجات كل ما كتب وقيل حتى اليوم في تعليل الهزيمة وتفسيرها وتبريرها . لاحظت هناك ان بلداً اشتراكياً تعتبر الدولة فيه أكبر موظف لابناء الشعب ويفترض ان تكون الدولة فيه محور الانتاج والعمل والبناء والدافع الرئيسي للتقدم المستمر ، ولكن ، وبالرغم عن كل ذلك كان دوام العمل الرسمي لجميع موظفي الدولة ومستخدميها لا يتعدى الأربع ساعات يومياً ، اي من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر ، اجلالاً لشهر رمضان وإكراماً لفريضة الصيام . تصوروا ماذا كان سيحدث للاقتصاد الاسرائيلي لو قررت الحكومة هدر نصف ساعات العمل في اليوم لمدة اسبوع واحد فقط وليس لمدة شهر كامل ؟ ان اي بلد رأسمالي يقدم على مثل هذه الخطوة ولو لإسبوع واحد سيتخبط مباشرة في أزمة اقتصادية حادة . فكيف يكون الامر اذن بالنسبة لبلد يمر في مرحلة التحويل الاشتراكي حيث الدولة هي كل شيء ، بكل معنى الكلمة !

سوريا الاشتراكية تقف على خط النار ، هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى فيبدو واضحاً أنه ان عملت سوريا اربع ساعات او ست ساعات أو ثماني ساعات في اليوم يبقى كلّ شيء في مجرى حياتها على حاله ولا يشعر أحد بالفارق ، وهذا تماماً ما احسسته خلال شهر رمضان المنصرم . وفي هذه الظاهرة وحدها من المغازي والمعاني والمضامين حول حقيقة الوضع

العربي الاجتماعي ما يكفي لتعليل الهزيمة العربية دون البحث عن اسباب اخرى .

٥) يوجد تعليل بسيط وشائع جداً بين المواطنين العرب ، على اختلاف آرائهم ومستوياتهم ، ينسب الهزائم العربية المتلاحقة في وجه اسرائيل الى سيطرة الصهيونية الدولية على العالم بأسره ، وعلى مقدرات الأمم والدول وحتى على مجرى التاريخ الحديث برمته . برز هذا النوع من التعليل بصورة خاصة بعد الهزيمة في مقالات وكتب عربية عديدة عرضت للفكرة بأساليب وصياغات تفاوتت في فجاجتها وسذاجتها . وعلى سبيل المثال يؤكد الدكتور كمال يوسف الحاج في كتابه المشار اليه آنفاً بأن «الرأسمالية هي ايضاً واقعة تحت سيطرت اليهودية العالمية »[٢٥] وان«الثورة الشيوعية هي من مبتكرات الذهنية اليهودية»[٢٦]. كما وضع عنوان فصل من فصول كتابه على النحو التالي : « الشيوعية ربيبة الصهيونية »[٢٧] . وهناك كتّاب آخرون يلجأون إلى « بروتوكولات حكماء صهيون » ليبرهنوا ان اليهود يسيطرون سيطرة تامة ،عن طريق مؤامرة عالمية جهنمية ، على مجرى التاريخ الحديث (وربما القديم) . ووفقاً لهذا المنطق الخرافي يجتمع حكماء صهيون مرة على الأقل كل قرن حيث

---

(٢٥) « حول فلسفة الصهيونية »، ص٧٩.
(٢٦) المرجع السابق ، ص٨٠ .
(٢٧) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

يجرون مناقشات ودراسات لوضع خطتهم السرية المرعبة لاستعباد العالم . ويؤكد لنا اصحاب هذه « النظرية » في تعليل الاحداث التاريخية ان مجرى التاريخ يسير ، بدون ادنى شك ، وفقاً لمخططات المؤامرة المذكورة ولا يحيد عنها قيد انملة بسبب دهاء القادة اليهود وذكائهم المفرط ونفوذهم غير المحدود مما يجعلهم قادرين على التخطيط والتنفيذ، على امتداد قرن كامل ببراعة لا يحيطها عقل [٢٨] . يأخذ هذا النمط من التفكير والتعليل الخيالي طابعاً شبه معقول ورزين— في احسن احواله — حين يلجأ الى تفسير السياسة الاميركية (او الغرب الرأسمالي عامة) بالقول ان اليهود يسيطرون على الاقتصاد الاميركي ويهيمنون على مجتمع ذلك البلد ويسيّرون سياساته ومواقفه لصالحهم وصالح اسرائيل . ولذلك نجدهم يشددون على دور الاصوات الانتخابية اليهودية في الحياة السياسية الاميركية ودورها في فرض مجرى معين على اتجاه سياسة البلاد الخارجية . وفيما يلي ملاحظاتي النقدية عن هذا النمط الشائع من التفكير حول الهزيمة وحول القضية الفلسطينية عامة .

من الاخطاء المريعة التي وقع فيها العرب بالنسبة لقضيتهم الأولى الاستخفاف الشديد بقوة العدو . أما الخطأ المريع الثاني الذي يقع فيه التقدير العربي للصهيونية وطاقاتها فهو تضخيم

---

(٢٨) شوقي عبد الناصر ، « بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود » ، دار التعاون ، القاهرة ، ص ٤٣ و ٥٠ .

قوتها ونفوذها الى حد صبغها بقدرات اسطورية فائقة تجعلها سيدة النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي ومجرى التاريخ مرة واحدة . وبطبيعة الحال ان تضخيم قوة العدو وسطوته ونفوذه على هذا النحو الخيالي هو اسلوب من اساليب تبرير فشلنا واسقاط مسؤولية الهزيمة على اسباب خارجة عن نطاق ارادتنا لأنها تمت الى قوى نريد ان نعتقد بانها على درجة من العظم والكبر بحيث تعجز امامها شجاعة الشجعان. وعلى هذا الاساس هل يلام العرب على تقاعسهم في الرد على التحدي الصهيوني بعد الهزيمة رداً يكون في مستوى الهزيمة إذا كانوا يواجهون قوة صوروها لأنفسهم على انها تتحكم بمصير وحياة الكتلة الرأسمالية والكتلة الشيوعية في العالم على أقل تقدير ؟ !

ويبين شيوع هذا النوع من التفكير في تعليل الهزائم العربية امام الصهيونية والقوى الاستعمارية الداعمة لها ان العقل العربي (أو بالأحرى الخيال العربي) لا يزال يميل ميلاً شديداً إلى الأخذ بأبسط التفسيرات لمجرى الاحداث التاريخية واكثرها سذاجة . ان ابسط السبل لفهم ظاهرة معقدة مثل السياسة الخارجية لدولة مثل الولايات المتحدة هي نسبتها الى شخص ما أو إلى مجموعة من الاشخاص (حكماء صهيون مثلاً) نعتبرهم مسؤولين عنها كلياً فنصب اللوم عليهم ونستنتج انه لو تلاشى هؤلاء الاشخاص من الوجود لتبدل مجرى الاحداث تماماً . اي اننا نبحث دوماً عن تعليل للأحداث يرجعها في نهاية الامر إلى

« قوة إرادية » كامنة خلفها او إلى « نوايا وغايات » مستقبلة لأشخاص يتدبرون مجاريها وفق اهوائهم ولكن بسرية تامة . وعليه يكون مجرى التاريخ على مدى قرن مثلاً ، وفقاً لهذا المنطق ، تنفيذاً دقيقاً لغايات ونوايا وإرادة جماعة حكماء صهيون مثلاً القابعين في الخفاء . لم يألف العقل العربي بعد تفسير الأحداث بأساليب علمية جديدة لا تعتمد على التعليلات الغائية وإرجاع الأحداث إلى إرادات خفية وقوى شخصية ، وانما تعتمد على اعتبارات إقتصادية موضوعية مثلاً او قوى اجتماعية تضغط بصورة آلية او تتفاعل على نحو جدلي فيما بينها. لا يزال الخيال العربي في صميمه يفضل تفسير سياسة الولايات المتحدة بنسبتها إلى فئة غامضة شريرة من الرجال المتآمرين المسيطرين على كل شيء بدلاً من تعليلها على اساس المصالح الاميركية الاقتصادية والاستراتيجية وحماية الاستثمارات الرأسمالية الاميركية الضخمة في منطقة تشمل الشرق الأوسط بكامله وجنوب شرقي آسيا بأسره . من نافل القول ان هذا النمط الشائع في التفسير ناتج عن تأثير التفكير الميثولوجي — الديني التقليدي الذي يعلل الاحداث ، في نهاية المطاف ، بردها الى الإرادة الالهية والى رغبات الكائنات غير المرئية ويرى في مجرى التاريخ تدبيراً إرادياً مسبقاً لسير الاحداث وتخطيطاً معداً لكل واقعة تقع .

من المؤكدان المروجين لهذا التضخيم الكبير لقوةالصهيونية العالمية

وسطوتها على طريقة الدكتور الحاج يعملون لأهداف معينة تتلخص في تبرئة الغرب الرأسمالي عامة والولايات المتحدة خاصة من تهمة العداء الصارخ المتعمد للقضية العربية في فلسطين . يجري منطق هؤلاء المروجين في اتجاه يقول أن « الغرب » مسلوب الإرادة بسبب السيطرة الصهيونية الخفية عليه ولذلك لا يجوز لنا أن نلومه باعتباره مخدوع ومسيّر في مواقفه المعادية لنا وليس مخيّراً . بعبارة اخرى « الغرب » حليف طبيعي للعرب ولمصالح العرب ، وما علينا الا ان نبين له كيف تستغله الصهيونية لمصالحها فيرجع إلى صوابه ويعود عن غيه وبالتالي لا داعي لمعاداته لأنه بريء اصلاً . يقول الدكتور الحاج :

> وعندي ان الشعوب العربية اخطأت في
> ان الغرب هو المسؤول الأول عن الصهيونية [٢٩].

ثم يصف هذا الاعتقاد العربي بالسطحية وبتشويه الحق ليخلص إلى القول بأن السبب

> الذي يحدوني على الا الوم الغرب هو كونه
> ُخدع ، تماماً كما خدعنا نحن طوال هذه
> المدات : اجل إن الغرب مخدوع [٣٠].

والنتيجة الطبيعية لهذا المنطق المدهش هي ترتب مسؤولية كبرى على عاتق العرب في ايقاظ الغرب من غطيطه على حد تعبير الدكتور الحاج . وبعد اتمام

(٢٩) «حول فلسفة الصهيونية»، ص. ١٢٧.
(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٢٨.

عملية الإنقاذ نصبح (بقدرة عجائبية طبعاً) نحن « القابضين على الغرب بدل ان يكون الصهاينة قابضين عليه ... (وتصبح) هذه القوى الغربيه الهائلة في متناولنا نحن بدل أن تكون في متناول الصهاينة »[٣١] . مسكين الغرب المخدوع ومسكينة القضية الفلسطينية الواقعة في شراك هذا المنطق اليميني الخرافي الفاحش . ويتضح من ذلك كيف يلجأ التفكير الرجعي الصرف إلى مناورة التهويل بقوة الصهيونية العالمية وسطوتها التي لا تقاوم ليعيد العرب — من حيث المبدأ — إلى حظيرة الغرب الاقتصادية والسياسية ، هذا الغرب الرأسمالي البريء المخدوع والمسكين !

اما الذين يعللون سياسة اميركا تجاه القضية الفلسطينية على أساس الاصوات اليهودية والنفوذ الذي تتمتع به الاقلية اليهودية في دوائر الحكم فهم أيضاً يعملون (من حيث يدرون أو لا يدرون) على تبرئة اميركا ، كدولة صاحبة مصالح استعمارية واسعة ، من تهمة العداء السافر لقضية فلسطين وقضايا الأمة العربية في التحرر من السيطرة الاقتصادية الاجنبيه والتبعية للنفوذ الرأسمالي العالمي . لا تريد هذه الفئة من الناس نسبة السياسة الاميركية إلى مواقف اميركية أساسية تابعة من مصالحها الاستعمارية الهائلة الممتدة في كافة القارات بل تريد

---

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

نسبتها إلى عوامل سياسية ، تلطف الجو قليلاً ، مثـــل النفوذ الصهيوني الناتج عن عوامل عديدة منها اصوات الاقلية اليهودية في الانتخابات الاميركية . وبطبيعة الحال يعني هذا المنطق انه لو خرج نصف اليهود الاميركيين من البلاد مثلا وتقلص بالتـالي نفوذهم بنفس المقدار لتحولت المواقف الاميركية ، بمقـــدار النصف ايضـــاً ، باتجاه المصلحة العربية في القضية الفلسطينية وغيرها . ولم لا ؟ أليست اميركا بلداً ديمقراطياً تقرر فيـه الاصوات الانتخابية كل شيء ؟ غير أن هذه التخيـلات المماثلة لأميركا غير اليهودية شيء والواقع شيء آخر . لو تقلص عـدد الاصوات اليهودية الى النصف فإن ذلك لن يؤثر ، بكل تأكيد ، على جوهر الموقف الاميركي من اسرائيل وقضيـــة فلسطين والانظمة الرجعية العربية عامة لأن موقف اميركا مبني إصلاً على أساس مصـــالح حيوية جداً (من بترول العرب إلى قصدير وتانغستن ومطاط جنوب شرقي آسيا مروراً بالرساميل الهائـلة المستثمرة في بلدان اليد العاملة الرخيصة) وهي عوامـل أهم واخطر بكثير من مجرد رغبة المرشحين في ارضاء مطالب الأقلية اليهودية الأميركية .

وحسبنا أن نذكر هنا أن الأقلية اليهودية في اميركا لم تكن راضية ابداً عن سياسة ايزنهاور تجـــاه العدوان الثلاثي على الجمهورية العربيـــة المتحدة عام ١٩٥٦ (هذا لا يعني أن حركة التحرر العربية كانت هي راضية عن سياسة ايزنهاور ودالاس)

لأنها كانت ترى « أن حكم ايزنهاور أظهر شعوراً بالصداقة تجاه اسرائيل أقل بكثير من عهد ترومان »[٣٢] . وبالرغم عن ذلك دخل ايزنهاور البيت الابيض بأكثرية شعبية ساحقة لم يعرفها رؤساء الولايات المتحدة قبله . كما انه حين كان هتلر ينظم المجازر الشنيعة لليهود في المانيا والمناطق التي احتلتها فشلت الاصوات اليهودية الاميركية بكل نفوذها في اقناع الحكومة على فتح باب الهجرة امام افواج اليهود الهاربين من الاضطهاد . وعلى الرغم من وضوح هذه الحقائق ما زلنا نجد مفكراً مثل وليد الخالدي يصر على مناقشة وتعليل السياسة الاميركية ومواقفها بردها الى الاعتبارات السياسية الانتخابية فحسب . يقول وليد الخالدي مفسراً دوافع السياسة الأميركية :

> لا اخاله خافياً على أحد أن الدافع الأصل الذي اشير اليه هو الاعتبارات السياسية الانتخابية وانه بالتالي يمكن فهم السياسة الأميركية الفلسطينية على انها بالتصميم مرآة للاخلاقية الصفوة السياسية الأميركية في هذا

(٣٢) مصطفى عبد العزيز ، « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١١٩ .

الصدد على اعلى مستويات المسؤولية جيلا بعد جيل [٣٣] .

يظل هذا التفسير في رأينا فوقياً ومبتوراً لأنـــه ينظر الى « الاعتبارات السياسية الانتخابية » وإلى « لا اخلاقية الصفوة السياسية الأميركية » وكأنها وقائع منزلة ونهائية لا ترتـد الى عوامل اعمق ومصالح أرسخ ، في المجتمع الأميركي ، تفتح لنا سبيل تعليل هذه الظواهر السياسية وشرح الأسباب المكونة لها . هل تسلك الصفوة الأميركية هـذا السلوك « اللااخلاقي » لأنها طبعت ، لسبب من الاسباب ، بصفات اخلاقية ذميمة أم لأنها تحمي شبكة ضخمــة من رؤوس الأموال والاستثمارات والشركات وفروع البنوك والاسواق وموارد الخام في انحاء العالم كله تقريباً ؟

اما فيما يتعلق بحكاية سيطرة اليهود على الاقتصاد الأميركي وهيمنتهم على المجتمع وتحديدهم لسياسة البـلاد فهي أقرب إلى الاسطورة منها الى الحقيقة . انها الحكاية التي تلهى بها العرب ليفسروا كل ما لم يعجبهم في قوة اسرائيل وعزمها وبأسهـــا ويبرروا لأنفسهم اخفاقهم في التصدي الفعال لامتداد اسرائيل المستمر في الأراضي العربية . تلهينـــا بهذه الحكاية ، بدون

---

(٣٣) « فلسطين عام ١٩٦٨ » الثقافة العربية ، بيروت ، تموز ـ آب ١٩٦٨ ، ص ٢٧٢ .

تمحيص الوقائع والحقائق، مع انها تبرىء خفية اميركا غير اليهودية من معظم التهم التي وجهناها ولا نزال نوجهها اليها ، وذلك بتحويل اللوم عن اميركا الى فئة واحدة صغيرة يفترض فيها التمتع بأقصى النفوذ والهيمنة . ولتبيان الحقيقة حول قصة السيطرة اليهودية على اقتصاد اميركا ما علينا الا الرجوع الى المعلومات الواردة في كتاب اشرت اليه آنفاً : « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية». يتبين بعد التدقيق في المعلومات الواردة في هذا المؤلف أن المصالح اليهودية لا تسيطر الا على بعض النواحي المحدودة في الاقتصاد الاميركي الواقعة ضمن القطاع الأوسط فيما دون من النشاط الاقتصادي العام في البلاد. وفيما يلي أمثلة عن المجالات الإقتصادية الخاضعة للنفوذ اليهودي إما جزئياً أو كلياً : صناعة الملابس الرجالية والنسائية برمتها تقريباً ، صناعة الفراء، تصميم الأزياء والماكياج ، تجارة الجملة والمفرق بالنسبة لبعض البضائع ، المجوهرات ، البقالة ، المشروبات الروحية ، استيراد وتصدير ، صناعة السينما والاعلام بصورة عامة بما في ذلك دور النشر [٣٤]. كما يتمتع اليهود بنفوذ قوي في ميدان وسطاء البورصة (وخاصة في نيويورك) وفي المجالات المهنية مثل المحاماة والطب وطب الاسنان والتدريس الجامعي . غير أن كافة هذه القطاعات الاقتصادية

---

(٣٤) « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية »، ص ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ .

الواقعة تحت سيطرة اليهود ليست الا نقطة في بحر بالقياس للقطاعات الاساسية التي تشكل العصب الحساس للاقتصاد الأميركي حيث نجد مصدر النفوذ السياسي الحقيقي . لندرج بعض الامثلة عن الشركات التي ينتعش بانتعاشها المجتمع الاميركي ويضعف بضعفها حقاً : ستاندرد اويل وشبيهاتها ، دوبون (Dupont) ، شركات الفولاذ الكبرى ابتداء بـ (U.S.Steel) وهي اكبرها حتى سادس شركة في الحجم مثلاً (Bethlehem Steel) . وفي مجالات التحويل والمصارف : بنك آوف اميركا ، و (Chase Manhatten, Bank First National City Bank) . شركات الطيران الكبرى المعروفة وشركات صنع السيارات الرئيسية وشركات الاعلان الكبرى ، شركات الاغذية والاطعمة الى آخر هذه اللائحة الطويلة . الحقيقة هي ان الفئة التي تسيطر على هذا القطاع من الاقتصاد تتحكم بالتالي بالاقتصاد الاميركي وبالمجتمع عامة . ولا يوجد ادنى شك في أن اليهود لا نفوذ لهم في هذا القطاع الاقتصادي الرئيسي ولا يسمح لهم بالاقتراب منه اصلا فكيف بالسيطرة عليه . الفئة المهيمنة على الاقتصاد الاميركي هي فئة « البروتستانت البيض » كما يدعونهم في الولايات المتحدة ويسمونهم ايضاً « بالزنابير » (WASPS) وهي اختصار لـ (White - Anglo - Saxon - Protestants) . ومهما بحثت فانك لن تجد لليهود (وحتى للكاثوليك) أي نفوذ أو تأثير حقيقي يذكر على المراكز الحساسة والقيادية في أي من

المؤسسات والشركات التي ذكرتها . كما أن أسماء الشركات نفسها تحمل القاب عائلية بروتستانتية انكلو ساكسونية معروفة مثل (Dupont) و (Ford) و (Chrysler) وعائلة روكفلر المسيطرة على بنك (Chase Manhatten) . وكل من يريد المزيد من التأكيد حول الموضوع ما عليه إلا أن يراجع اسماء اعضاء مجالس الادارة والمسؤولين الكبار في هذه الشركات الكبرى والبنوك الضخمة ليتحقق من مدى نفوذ وتأثير الاقلية اليهودية فيها . بطبيعة الحال نحن لا ندّعي ابداً أن اليهود في اميركا ليسوا اقوياء واثرياء واصحاب نفوذ على دوائر الحكم غير أن هذا شيء ووهم السيطرة على الاقتصاد الاميركي شيء آخر . يقول مصطفى عبد العزيز ما يلي حول هذا الموضوع :

> يوجد عدد قليل من اليهود ممن يملكون مصانع الصلب أو يشتغلون فيها ، وكذلك قليل منهم يعملون في معامل تكرير البترول والمناجم وصناعات السيارات والورش ومصانع اللحوم المعلبة والمحفوظة وغيرها من الصناعات الرئيسية . كما انه في صناعات المنافع العامة كالسكك الحديدية والكهرباء والغاز وامثالها يقل عدد اليهود الذين يشتغلون فيها سواء اكانوا عمالاً أو ملاكاً . وهم وان كان يقل عدد من يعمل منهم نسبياً في الوظائف التنفيذية العليا

في البنوك فان لهم نفوذاً هاماً في دور النشر والطباعة والاذاعات والتلفزيون ودور السينما [٣٥] .

ويذكر المؤلف نفسه ضآلة اليهود العاملين في البنوك قائلاً :

.. تبين ان ٤٥ من هذه البنوك لا يوجد بهـــا موظفون يهود في المناصب العليا، واربعة في كل منها يهودي واحد يشغل منصباً عالياً، وبنك واحدفيه اربعة يهود في مراكز عليا،وانه يوجد ٣٢ يهوديـــاً فقط من اجمالي ٣٤٣٨ موظفاً في مناصب الادارة ذات المستوى المتوسط [٣٦].

اضف الى ذلك ان الآفـــة الكبرى في حياة المجتمع الاميركي هي التميـــيز العنصري والتعصب العرقي المشهور . والمصدر الاساسي لهذه النزعة العرقية في اميركا هو فئة البروتستانت البيض اياها المسيطرة على الاقتصاد حقاً .وعقدة التمييز العنصري لا تنصبّ على الزنوج فحسب بل تمتد الى الهنود الحمر واليهود والبورتوريكيـين والمكسيكيين والصينيين واليابانيـــين وحتى الكاثوليك من الطليان والايرلنديين . وعلى هذا الاساس تتضح العلاقة القائمـــة بين السيطرة الاقتصادية من قبل الفئات البروتيستانتية البيضاء وبين التمييز العنصري الذي تمارسه ضـــد الفئات الأخرى التي لا تسيطر الا على القليل نسبياً (مثل اليهود)،

---

(٣٥) « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية »، ص٦٢ - ٦٣.
(٣٦) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

أو هي لا تسيطر على شيء يذكر (ولا يراد لها أن تصبح مسيطرة على شيء) مثل الزنوج والهنود الحمر والبورتوريكيين [٣٧]. لذلك نجد انه بالرغم عن أن الطلبة اليهود يشكلون نسبة تتراوح ما بين ١٠ ٪ و ١٢ ٪ من مجموع طلبة الكليات في اميركا ، وبالرغم عن تغلغل اليهود إلى حد كبير في التدريس الجامعي فانه لا يكاد يوجد يهودي واحد يشغل منصباً إدارياً عالياً في الجامعات والكليات

---

(٣٧) هنا نجد التفسير الصحيح لموقف اليهود المجافي نحو ايزنهاور . لم يكن ايزنهاور فى الحقيقة اكثر عطفا على القضايا العربية من غيره من رؤساء الولايات المتحدة بدليل مواقف حكومته المعادية تماما (وخاصة دالاس) لقضايا الساعة فى ذلك الوقت مثل الحياد الايجابي وعدم الانحياز وكسر مصر لاحتكار السلاح وبناء سد اسوان وبدليل سياسة الاحلاف و « نظرية الفراغ » المشهورة وسياسات « الاحتواء والمحاصرة » والرادع النووي التي طبقتها حكومته ضد الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية عامة . جفاء الاقلية اليهودية نحوه لا يرجع اذن الى عطفه المزعوم على قضية العرب فى فلسطين او غير فلسطين . ان مرد هذا الجفاء هو اشتهار حكمه على انه العهد الممثل ، بكل وضوح وبدون اية تورية ، لمصالح القطاعات الاقتصادية الكبرى فى اميركا على حساب القطاعات الصغرى . ويعبر الامريكي العادي عن ذلك بقوله ان عهد ايزنهاور مال اكثر من غيره نحو خدمة مصالح الـ Big Business وكان ذلك على حساب رجال الاعمال الصغار نسبيا . وبما ان القطاعات الاقتصادية الكبرى هي فى يد « البروتستانت البيض » ومحرمة تقريبا على النفوذ اليهودي فلا عجب اذن ان لم تكن الاقلية اليهودية في اميركا على وئام تام مع ايزنهاور وحكومته وخاصة مع دالاس وهو من « البروتستانت البيض » الاقحاح وممثلهم الاول فى الحكم والدولة . في الواقع لا يؤيد اليهود الحزب الجمهوري لانه معروف بميوله المحافظة جدا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية النابعة من ارتباطاته الوثيقة بعناصر الـ Big Business وحكم الحزب الجمهوري يعني تكريس حرمان اليهود ونفوذهم من دخول المجالات الاقتصادية الكبرى وتوابعها . وبالرغم عن ان اكثرية الاصوات اليهودية تذهب بالتالي الى مرشح الحزب الديمقراطي فاز ايزنهاور باكثرية ساحقة كما هو معروف ، اي لم يكن للاصوات اليهودية اي تأثير على النتيجة كما ذكرت في السابق .

الاميركية مثل رئيس جامعة أو عميد كلية مهمة [٣٨]

نستخلص من هذا النقاش ما يلي :

اولاً : ان شيوع وهم السيطرة اليهودية الكاملة على الاقتصاد الاميركي وانتشاره بهذه الصورة بين المواطنين العرب ناتج في أحسن الأحوال عن الجهل بأوضاع الاقتصاد الأميركي ووقائعه وعن رغبتنا في الأخذ بتفسير بسيط وسريع لسلوك اميركا نحو القضية الفلسطينية . أما في أسوأ الاحوال فهو محاولة مقصودة لتبرئة اميركا غير اليهودية (أي اميركا الحقيقية باقتصادها التوسعي ومصالحها الاستعمارية الخ ...) من تبعة معاداة الأمة العربية والمساهمة الفعالة في تشريد الشعب العربي الفلسطيني .

ثانياً : إن التصور العربي للحركة الصهيونية على انها مجرد تابع وامتداد لأميركا أو على أنها تحكم اميركا وتسيطر عليها فيه كثير من التبسيط للحقائق التاريخية إذ إن رصد تاريخ الحركة الصهيونية يبين أنها كانت تعقد تحالفاتها مع الدول الكبرى وفقاً للمصالح والظروف الراهنة . لذلك حاول هيرتزل الاعتماد على غليوم الثاني في بادىء الأمر (١٨٩٧) وحين فشل حاول التقرب من الدولة العثمانية (١٩٠١) ولكن مساعيه لم تنجح هذه المرة ايضاً . في العام ١٩٠٢ بدأت الحركة الصهيونية بالاعتماد على بريطانيا العظمى التي اقتنعت من ناحيتها أن الدولة

---

(٣٨) « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » ، ص ٧٠ . للتعرف على اوجه اخرى من التمييز ضد اليهود انظر ص ١١٠ من المرجع .

اليهودية ستكون درعاً وحليفاً لها ولمصالحها ضد العرب وضد منافسي الامبراطورية البريطانيـــة مثل فرنسا في ذلك الوقت فكان ما كان مما نعرفه عن وعد بلفور . وقــد قال العرب في تلك الاعوام وما بعدها ما يقال اليوم عن علاقة الحركـــة الصهيونية باميركا ، أي قالوا إن الصهيونية تحكم بريطانيا وتسيطر عليها وعلى اقتصادها وقالوا أيضاً إنها مجرد تابـــع وامتداد لبريطانيا . أما قصة انتقال النشاط الصهيوني ، اثناء الحرب العالمية الثانية ، الى اميركا فمعروفة إذ اصبحت الولايات المتحدة الدولة الأقوى في العالم وبدأت تمد مصالحها الى الشرق الاوسط وكان من الطبيعي أن تستفيد اميركا من الحركـــة الصهيونية تمامـــاً كما فعلت بريطانيا من قبلها . أي تلاقت الارادتان ، الاميركية من ناحية والصهيونية من ناحية اخرى ، في اتفاق شبه تام حول الاهداف والمصالح الحيويـــة في الشرق الاوسط في هذه الحقبة التاريخية [٣٩] .

ثالثاً :العامل الحاسم في تقرير السياسة الاميركية الفلسطينية هو مصالح اميركا الحيوية (على انواعها) الممتدة في جميع انحاء العالم : اي العوامل التي تقرر ، في النهاية ، سياستها في امـــيركا اللاتينية كما في الفيتنام تقرر نمط سياستها ايضاً في الشرق الاوسط، حيث تأخذ هذه السياسة صورة دعم اسرائيل والانظمة الرجعية

---

(٣٩) عادل حسين « الطريق لمواجهة العدوان وتصفية الكيان العنصري في اسرائيل »،مجلة « الطليعة » المصرية ، تموز ١٩٦٧ ،ص ١٠٦ — ١١٠.

ومحاربة كافة الحركات التحررية التي قد تقدم على تصفية المصالح الاميركية وتهدد أمنها واستقرارها وامتداد نفوذها . وللأسف بينت هزيمة الخامس من حزيران مدى نجاح السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، اذ انها استفادت ايما فائدة من الضربة شبه المميتة التي تلقتها حركة الثورة العربية، كما انها نجحت في انعاش الانظمة الرجعية في المنطقة وحصنت اسرائيل ببعد استراتيجي جديد ، كل ذلك بدون ان تمس المصالح الحيوية الاميركية في الوطن العربي بأي سوء، ومع المحافظة على جميع امتيازاتها البترولية والمالية والاستراتيجية والثقافية السابقة .

رابعاً : بما ان دعم الدول الاستعمارية الجديدة لإسرائيل يتناسب تناسباً طردياً مع حجم المصالح الاستعمارية في الوطن العربي ،وبما أن ضعف القدرة العربية على مواجهة اسرائيل تتناسب بصورة مشابهة مع نفوذ الدول الاستعمارية في اقتصاد وسياسات قسم كبير من الدول العربية ، نستنتج ان المعركة لتصفية النفوذ الاستعماري في الوطن العربي وبناء مجتمع اشتراكي عصري تتكامل تماماً ولا تنفصل عن المعركة العربية لمواجهة اسرائيل وتحرير الارض المحتلة .

III

بعد هذا الاستعراض والتحليل لنماذج معينة من نزعة ازاحة المسؤولية عن النفس واسقاطها على الغير التي تجلت بوضوح بعد هزيمة الخامس من حزيران ، أريد أن ألح بأن هذه النزعة ترتبط بعوامل أساسية تدخل في بنيان المجتمع العربي التقليدي ولا

تنفصل عن خصائص الشخصية الاجتماعية التي تربيها البيئة العربية المتوارثة في كل واحد منا وتنميها فيه. وليس باستطاعتي التوسع في هذه الناحية من الموضوع، غير أني اريد ربط ظاهرة المنطق التبريري العربي الذي مررنا عليه بنمط من السلوك الاجتماعي المعين درسه عالم اجتماعي عربي معروف هو الدكتور حامد عمار واطلق عليه اسم «الشخصية الفهلوية»[٤٠]. وواضح ان الشخصية الفهلوية ليست الا تجريداً وانموذجاً، ولا وجود لها في الواقع الحي الا على صورة خصائص وانماط سلوك وردود فعل ومشاعر واحساسات يتصف بها الافراد في بيئات اجتماعية معينة وبنسب مختلفة قد تزيد وقد تنقص من فرد الى آخر وفقاً للظروف والاوضاع.

من خصائص الشخصية الفهلوية التي يعددها الدكتور عمار البحث المستمر عن اقصر الطرق واسرعها لتحقيق هدف معين أو غاية معينة مع تجنب العناء والجد المطلوبين عادة في اجتياز العقبات للوصول الى تلك الغاية وتجنب استخدام الوسائل الطبيعية لتحقيقها، لأن همّ الفهلوي ليس انجاز العمل على أكمل وجه وانما انجازه وتحقيق هدفه حتى لا يقال عنه بأنه عاجز عن ذلك أو بأنه «ما بيقدر» أو «ما بيطلع بيده». اذ أن الامر المهم بالنسبة اليه هو أن ينجز العمل بصورة تحفظ له «واجهة

(٤٠) «في بناء البشر، دراسات في التغير الحضاري والفكر التربوي»، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي، سرس الليان، ١٩٦٤، ص ٨٠ — ٩١.

شخصيته » . فالطالب الفهلوي في اوساطنا هو الذي ينجح دوماً بدون أن يجهد نفسه بعناء الدراسة الجادة المستمرة، وهو يفاخر بذلك ويستهزىء بالزميل البائس المنعزل الذي يعمل ليلاً نهاراً في مذاكرة دروسه وينعته بشتى النعوت : « بصّيم » ، « بيحفظ غيباً وما بيفهم شو عم يقرأ » ، « وحش درس أو علم » . الطالب الفهلوي يهتم اولاً واخيراً بالنجاح الشكلي وبتحقيق المظهر الخارجي الذي يأتي مع هذا النجاح ولذلك نراه يلجأ الى جميع الحيل والسبل اللامشروعة، ليحصل على النجاح بما في ذلك التزلف للاستاذ وأحياناً رشوته، الغش في الامتحانات ، التخمين وضرب الاخماس بالاسداس حول الأسئلة التي ستطلب منه اجابتها في الامتحان ، وحلمه الابدي أن تقع نسخة من اسئلة الامتحان بين يديه قبل موعد الامتحان ،الى آخر ما نعرفه جميعاً إذ اننا كنا طلاباً أو أن ابناءنا اليوم طلاب . والمؤلم في هذه القضية هو أن معظمنا أقدم على هذا النوع من السلوك وكأنه أمر طبيعي وبدون وخزة ضمير أو محاسبة نفس أو رادع داخلي يقول لنا : نجاحك مزيف اجوف فارغ لا فعالية فيه ولا قوة . الامر الذي يخيفنا ليس الرسوب بحد ذاته وانما العار والفضيحة التي نعتقد بأنها تحيق بنا حين ينتشر نبأ رسوبنا ويعرف. وكم من طالب جامعي عرفت ، اخفى نبأ رسوبه عن اهله ومعارفه حتى لو كان يستحق الرسوب وتباهى امامهم بالنجاح حتى لو لم يكن يستحقه لأنه حصل عليه بطرق ملتوية غير مشروعة . أما الفاجعة فتأتي عندما يتدرج هذا الطالب الفهلوي على مقاعد

الدراسة ويصبح ضابطاً في الجيش أو مسؤولاً مهماً في جهاز الدولة وينقل معه انماط سلوكه الفهلوية ويطبقها بكل عفوية وسذاجة في عمله الحاضر ، ماذا يحدث لنا عندما يحاول هذا الضابط الفهلوي أن يبحث عن اقصر الطرق ، مهما كانت ، ليقال عنه بأنه ضابط ناجح فيجنب نفسه ما يعتبره فضيحة وعاراً ان هو اعترف بالفشل وحاول تخطيه ؟ ماذا يحدث للامة حين ينجح هذا الضابط في دوراته العسكرية ويترقى من رتبة الى رتبة بطرق وسبل تشبه تلك التي كان يمارسها لينتقل من صف الى صف الى ان احرز ، بواسطتها ، شهادته الثانوية أو الجامعية مثلاً ؟ ماذا يحدث للامة حين يتملق هذا الضابط رؤساءه في أهم القضايا ويبين لهم بأنه مكتّن نفسه من معلومات ودراسات هو في الواقع بعيد كل البعد عنها ، تماماً كما كان يتملق اساتذته في الجامعة ويظهر أمامهم بمظهر العارف بتفاصيل موضوع دراسته بينما هو في الحقيقة نقلها من زميله أو من ورقة كان قد ادخلها معه خلسة الى قاعة الامتحانات ؟ هذه النزعة الفهلوية التقليدية نحو اخفاء العيوب والظهور أمام الآخرين بمظهر يختلف عن حقيقة اوضاعنا (سيراً على سنة « اذا بليتم بالمعاصي فاستتروا ») هي التي تعطي أهمية خاصة لما قاله الرئيس عبد الناصر في خطاب له في احدى القواعد العسكرية حيث شدد على هذه النقطة فقال :

وبعدين في نفس الوقت ما نخفيش عيوبنا دلوقتي
علشان تظهر عيوبنا في وقت المعركة ، على كل
قائد انه يقول العيوب الموجودة عنده وأنا
سعدت جداً النهارده لما شفت قائد الفرقة وقال

ايه العيوب الموجودة عنده وايه نواحي النقص
الموجودة عنده. ده اسلوب جديد . ما نخبيش ،
لأن اذا خبينا عيوبنا النهارده حنصلحهـــا
ازاي .. » [٤١].

وواضح من مغزى هذا الكلام ان النزعة الفهلويـــة المذكورة متفشية في صفوف القوات المسلحة تفشيهـا في المجتمع العربي التقليدي عامة ، وان مكافحتها الفعالة هي اسلوب جديد دخل الميدان بعد الهزيمة كما ذكر الرئيس عبد الناصر .

هذه الخصال الفهلوية التقليدية تجعلنا عاجزين عن تقبل الحقيقة والواقع ، وفقاً لما تفرضه الظروف الحرجة من تصرف سريـع ، وتضطرنا لاخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية انقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه كما يتبين لنا من مثل ضربه هيكل عن « بعض شوائب السلوك » التي بدت من المسؤولـين العسكريين العرب حين ضربت مطارات الجمهورية العربية صباح يوم الحرب. قال هيكل في كشف بعض ما خفي عن المجزرة التي تعرض لها الطيران العربي في مصر ما يلي :

ان الحساب الاسرائيلي اعتمد على بعض شوائب
السلوك التي يسببها نقص الانضباط وهي شائبة

---

(٤١) صحيفة **الانوار** بيروت ، ٣٠ نيسان ١٩٦٨.

التأخر في ابلاغ الحقيقة اذا كانت سيئـــة الى المستويات الأعلى . ان هذه الشائبة في السلوك اعطت العدو عشر دقائق كانت هي ما يحتاجه بالضبط لكي يحقق المفاجأة لاحدى عشرة قاعدة جوية ركز عليها ضربته الاولى ...ولقد كانت الغارة الاولى على بعض المطارات المتقدمة في سيناء لكن شوائب السلوك لعبت دورها في سرعة الابلاغ وضاعت دقائق غالية لاتقدر الخ.

ان اعتماد العمل الاسرائيلي على هذه الشائبـــة من شوائب السلوك ليس استنتاجاً أو اجتهاداً من جانب احد وانما هو قول قائد الطيران الاسرائيلي نفسه الجنرال موردخاي هود (في شرح) توقيتات خطته...(الاهرام،٢٨/ ٦ /١٩٦٨).

بطبيعة الحال لم يضع الجنرال هود توقيتات خطته على اساس مجرد شائبة سلوك بسيطة - كما يصفها هيكل لياقة وتأدباً ومحافظة على المظاهر- بل ضعها على اساس فهم دقيق للخصال التي يتصف بها النمط التقليدي للحياة العربية المتوارثة وتقدير مضبوط لطبيعة انماط السلوك وردود الفعل التي يكتسبها الفرد في مثل هذا المجتمع الاتباعي ولنوعية الأولويات التي انغرست في نفسيته بالنسبة لقيم الحياء واخفاء العيوب والتستر على الحقيقة اذا كانت سيئة. الخصال التي يتكلم عنها هيكل ليست شوائب،

انها رواسب ضخمة بل جبال تثقل كاهل الانسان العربي الذي يحاول أن يكيف نفسه مع اساليب جديدة في الحياة والقتال . وكان يفترض في الثورة أن تكون واعية كل الوعي للسلبيات التي تفرضها هذه الرواسب العتيقة على المواطن العربي عامة وعلى المقاتل العربي خاصة ، فتعمل على استئصالها وتجاوزها كلياً عن طريق المدرسة وتربية جيل الثورة الجديد من ناحية ، وعن طريق التدريب العنيف الشاق والتربية العقائدية الاشتراكية والعصرية في صفوف القوات المسلحة من ناحية اخرى ، إذ ليس في الرواسب والخصال الفهلوية ما يتعذر استئصاله وتخطيه إن نحن رضينا في بذل الجهود اللازمة وتقديم التضحيات الضرورية لذلك . وما من ثورة اشتراكية عميقة وصامدة إلا وأولت هذه الناحية الجوهرية في تكوين مواطنيها وشبابها واجيالها المتلاحقة اشد العناية وابلغ الاهتمام .

ومن سمات الشخصية الفهلوية التي يذكرها الدكتور عمار نزوعها إلى الحماس المفاجىء والاقدام العنيف والاستهانة بالصعاب في أول الطريق ثم انطفاء وفتور الهمة عندما يتبين للفهلوي أن الامر يستدعي المثابرة والجلد والعمل المنتظم الذي لا تظهر نتائجه إلا ببطء وعلى شكل تراكمي ، ومن منا لا يعرف هذا الشاب العربي الواعي الذي اندفع اثناء المعركة الحامية يريد الحصول على السلاح ويتمنى لو كان بامكانه قيادة طائرة حربية أو عربة مدرعة رغم أن مقدرته على حمل السلاح

قد لا تتعدى مستوى بندقية الصيد، ولكنه مستعد لأن يضحي بنفسه في سبيل القضية . لنترك المعركة ونعود مع هذا الشاب إلى ميدان الحياة اليومية وروتينها . انه موظف في إحدى دوائر الدولة يعمل ست ساعات يومياً من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر ، وبعد وجبة الغداء يستمتع بفترة القيلولة ومن ثم يلعب الورق أو الطاولة ويتكلم بالسياسة في مقهاه المفضل وبعدها يشاهد التلفزيون أو يرفه عن نفسه بصورة من الصور في المساء ليعود إلى نفس الروتين في اليوم التالي . لنحاول الآن أن نفهمه بأن ساعات العمل الاسبوعية سترتفع إلى تسع ساعات يومياً بسبب ضرورات بناء البلاد وفقاً للخطة الاشتراكية الجديدة ، أو أن عليه من الآن فصاعداً أن يداوم في مكتبه بعد الظهر لاتمام الاعمال المتراكمة ، أو حاول أن تطلب منه أن يتقيد بالمواعيد بدقة اكبر ، أو أن تتوقع منه زيادة ملحوظة في نشاطه وانتاجه ، أو أن تتوقع منه تحمل بعض المسؤوليات على أساس نشاطه الفردي ومبادرته الشخصية ، أو أقنعه بتغيير روتين حياته المعهود على اعتبار أنه يهدر معظم ساعات النهار ويضيعها سدى بما في ذلك قسماً من ساعات الدوام الرسمي وحاول ايضاً أن تقنعه أن يشغل ساعات الفراغ الطويلة ، بما يفيد وينفع ، ماذا يكون ردّ فعل هذا الشاب ؟ انفة وتردد واعذار ومحاولات خفية للتهرب من بذل الجهد المطلوب للخروج من حلقة الروتين المفرغة ومن هذه الرتابة الجوفاء ، انه بكل بساطة مثل الطالب الفهلوي الذي لا يربط بين تبديل قواعد

عمله وتقاليد حياته وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية وبين المعركة التي تحمس لها . انه لا يعي بعد واجبه في التكيف مع ظروف جديدة ضرورية لتحقيق النصر ، وأن تمسكه بهذا النمط من الحياة يعيق تقدم البلاد وتحقيق الهدف الذي كان مستعداً لأن يموت من أجله في ساعة الحماسة والعصبية لأن هذا التمسك هو عين الرجعية والبطء . كما انه لا يدرك أن الواجبات الجديدة التي يفرضها التحول الاشتراكي على نمط حياته اليومية ، وخاصة في ميدان تصريف الاعمال التي يكون مسؤولا عنها مباشرة ، توازي بأهميتها اندفاعه الفوري العصبي المؤقت لحمل السلاح حين تقع الواقعة . ولا يتوقف حل هذه المشكلات على التوعية والنصح والارشاد فحسب وانما يتعدى ذلك الى تغييرات جذرية في طبيعة المؤسسات الاجتماعية والتربوية التي أنشأت هذا الشاب وحدّدت له الجزء الاكبر من نمط حياته الفهلوي المتخلف الهادر للطاقات الانسانية والعقلية والانتاجية بصورة عامة .

في الواقع هذه مشكلة رئيسية يعاني منها الشباب العربي الثوري الملتزم ، إذ إن ثورة مثل هذا الشباب تبقى في أغلب الاحيان ثورة على المستوى السياسي لا أكثر . أي أنها لا تتعدى مستوى الأطر الفوقية ولا تمس بصورة عملية وفعلية مستوى العلاقات الاجتماعية ونسيجها التقليدي الذي يطبع الصعيد السياسي الاول بطابعه المتخلف والبطيء . فبالرغم من ثورة هذا الشاب على الصعيد السياسي نجد دوماً أن علاقاته الاجتماعية وارتباطاته العائلية ومحاكمته للامور الخاصة والعامة وسلوكه

العام نحو عمله ومحيطه المباشر كلها تابعة من مقومات المجتمع الاتباعي وقيمه وانماط سلوكه واحكامه الرجعية التي يفترض فيه أن يكون قد رفضها باعتباره ثائراً عليها · بعبارة اخرى الشاب الثوري العربي اليوم ثوري سياسياً ولكنه ، في قاع قلبه ، محافظ اجتماعياً ودينياً وثقافياً واخلاقياً واقتصادياً إلا فيما ندر . والادعاء من قبله بخلاف ذلك على الصعيد النظري لا يبرهن شيئاً لأن الثورة على هذه المستويات ليست شيئاً مجدياً ما لم تتحول إلى انماط سلوك جديدة يمارسها الانسان الثوري في محيطه تلقائياً ويفعل بها في مجتمعه وبيئته فعلاً ايجابياً مجدداً، لذلك كانت تصيبني الدهشة دوماً عند الاحتكاك بافراد وجماعات من الشباب العربي الذي يعتبر نفسه ثورياً بسبب ما كنت الاحظه من انه في الدقيقة التي كان يبتعد فيها عن موضوعات السياسة ومقاومة الصهيونية والتصدي للاستعمار الخ. . يطرأ على موقفه تغير مفاجيء جذري بحيث تصبح كافة آرائه وتصرفاته واحكامه وقيمه وانماط سلوكه حول جميع شؤون الحياة والمجتمع وكأنها صورة مصغرة منقحة ومتقدمة قليلاً عن سلوك وآراء وقيم آبائنا وامهاتنا وحتى أجدادنا ، بينما كان يفترض في مثل هذا الشباب أن يكون على النقيض من ذلك باعتبار ان افراده ثوريون تقدميون ، وان لم يكونوا ثائرين على صورة الماضي القائمة ومتقدمين على اسلافهم فهم ثائرون على ماذا أومتقدمون على من إذن ؟ ما لم يكن الموقف الثوري كلياً بالنسبة لصاحب الموقف ، يشمل شخصيته واعماله وارتباطاته ونظراته

واحاسيسه ليصيغها صياغة جديدة متكاملة ومتجددة يبقى الموقف الثوري مبتوراً وسطحياً وعلى مستوى ضعيف من الفعالية الايجابية . بعبارة اخرى ، ينبغي أن يتبدى الموقف الثوري عند الانسان الثائر في تحويل جديد ونظرة جديدة تفعل فعلها ليس على صعيد السياسة فحسب وانما على صعيد الامور الروتينية في حياتنا التي تعودنا قبولها بدون مناقشة أو مراجعة بسبب استقرارها وطول احتكاكنا بها . الموقف الثوري بهذا المعنى يتعدى السياسة ليشمل موقفاً عملياً وجذرياً محدداً يتجلى يومياً في سلوك الثوري عن طريق تفاعله مع الثقافة ، مع التربية والتعليم ، مع الجامعة وهيئاتها، مع الاسرة ونوعية ارتباطاته بها، مع قاعدة الابوة الصارمة في المجتمعات التقليدية ، مع المرأة في المجتمع وفي حياته الخاصة الخ ... فاما أن يعيش سلوكاً ثورياً تجاه هذه المؤسسات برفضه لصيغها المتوارثة المهترئة كمرحلة اولى ، أو يبقى على مستوى الضحالة والسطحية في ثورته . ونحن لا نتجنى على الحقيقة إن قلنا أن الشباب العربي الثوري (ذكوراً وإناثاً) الذي اصبح يتصرف بتلقائيته وعفويته تصرفاً ثورياً تجاه شؤون الحياة التي مثلنا عليها نادر حقاً لأنه لايزال في حقيقته محافظاً جداً كما ذكرت [٤٢] .

---

(٤٢) اولى لينين هذه الظاهرة بين الثوريين (وخاصة الشباب الملتزم منهم) اهتماما خاصا وكتب حولها تحليلات عديدة ونقدها بشدة وسخرية لاذعة . واذا كان الرفاق الذين يتهكم لينين من ثوريتهم =

وثمة خصائص اخرى تتصف بها الشخصية الفهلوية وفقاً لتحليل الدكتور عمار مثل المغالاة في تأكيد الذات والميل الملح لاظهار القدرة الفائقة في التحكم بالامور كما يتبين من تصرف الافراد الاسخياء بوعودهم حين يقولون: «اعتبر المشكلة محلولة»، «انا بمون عالوزير»، «انت شو بدك خليها عليّ وانا بتكفل بالقضية»، «خلص خذها مني» إلى آخر هذه العبارات الشائعة التي نعرفها جميعاً. ومن مظاهر تأكيد الذات الفهلوية الاستهتار بالغير والتقليل من شأنهم والتظاهر بالقدرة البارعة على حل الامور كما هو واضح من سلوك هؤلاء الاشخاص الذين يؤكدون ذواتهم ويفاخرون ببراعتهم بالاستهزاء بالاخرين والتقليل من شأنهم بدون أن يشعر هؤلاء بأنهم ضحية ألاعيب الشخصية

= السطحية معذورين فى عشرينيات هذا القرن فما هو عذر شبابنا الذي يعتبر نفسه ثوريا وملتزما بمثل واهداف ثورية في زمن لم يبق فيه من القرن الحالي الا ثلاثون عاما فحسب ؟ فيما يلي مقطع من حديث للينين مع كلارا زتكين يتناول فيه بالنقد والسخرية والتهكم ظاهرة الثورية السطحية لدى الرفاق كما تتبين بوضوح في مشكلة محددة وحساسة جدا هي موقف الرجل الثوري من المراة ومكانها التقليدي في المجتمع .

قال لينين : « لسوء الحظ لا يزال بامكاننا ان نقول عن الكثير من رفاقنا الشيوعيين انه اذا خدشت قشرة احدهم الخارجية ظهر لك السطحي والتافه تحتها . عليك ، على وجه التأكيد ، ان تخدش الاماكن الحساسة مثل عقليتهم بالنسبة للمراة . هل يوجد برهان ملموس على ذلك افضل من المنظر المألوف لرجل يراقب بكل هدوء امرأة تبدد نفسها باعمال تافهة، رتيبة، تستنفذ قواها ووقتها ، مثل الاعمال المنزلية : يراقب حيويتها تضمحل وذهنها يتبلد ودقات

الفهلوية . وفي كل شلة من الاشخاص انسان يتميز بأنه « بيستلبس الناس » أو « بيسحب على الغير » أو « بيتمرقع » على الجميع كما نقول في تعابيرنا العامية . لذلك نجد انه إذا أبدى احد العاملين اهتماماً بالعمل أكثر من القدر المعتاد من زملائه ، أو قدم للعمل افكاراً جديدة دعا إلى تحقيقها ، أو هـو حرص على التطبيق

قلبها تخفت وارادتها تضعف . ليس من الضروري ان اذكر بأنني لا اتكلم عن المرأة البورجوازية التي تلقي باعباء العمل المنزلي والعناية بالاطفال بكاملها على الخدم المأجورين . ينطبق كلامي على الاكثرية الكبرى من النساء بما فيهن زوجات العمال حتى لو كانت الاخيرات قد امضين نهارهن في المصنع لكسب المال .

قليلون هم الازواج ، حتى في صفوف البروليتاريا ، الذين يخطر لهم الى اي مدى باستطاعتهم تخفيف ثقل الاعباء والمتاعب الملقاة على عاتق زوجاتهم لو مدوا لهن يد المساعدة في اتمام « هذا العمل النسوي » . بطبيعة الحال انهم لا يفعلون ذلك لان هذا السلوك يتعارض مع « امتيازات » الزوج و « كرامته » . هذا الزوج الذي يصر دوما على تأمين الراحة لنفسه . حياة المرأة في المنزل ليست الا تضحية يومية بالنفس في سبيل الف تافهة وتافهة . وحقوق زوجها ـ « سيدها ومولاها » ـ العتيقة تستمر في التأثير بصورة خفية غير ملحوظة . ولكن « عبدته » هذه تتأثر منه خفية من الناحية الموضوعية ، اذ ان واقع تخلفها وعدم استيعابها لمثله الثورية يثبط عزيمته النضالية ويحد من تصميمه على الكفاح ... اني اعرف حياة العمال ومعرفتي بها ليست من خلال الكتب فقط . عملنا الشيوعي بين جماهير النساء وعملنا السياسي عامة يشملان جهودا تثقيفية كبيرة بين الرجال . لذلك ينبغي علينا ان نستأصل من الحزب ومن بين الجماهير تلك النظرة القديمة للمرأة ؛ نظرة صاحب الرق للرقيق . هذا واجب من واجباتنا السياسية وهو واجب ملح وضروري مثله في ذلك كمثل واجبنا الملح في تشكيل هيئة من الرفاق ـ رجالا ونساء ـ المدربين تدريباً نظريا وعمليا رفيعا للعمل الحزبي بين النساء العاملات .

(Lenin, on the Emancipation of Women , Progress Publishers, Moscow, pp. 110 - 111)·

السليم لأحكام العمل وقواعده وأصوله أملا منه بأن يخرج العمل نموذجياً ومثالياً فانه في كل هذه الحالات كثيراً ما يكون موضع تهكم وسخرية من زملائه الفهلويين الذين يصفونه بأنه « حنبلي » ، وبأنه « قابضهـا جد » ، و « بأنهم عينوه وظلموه »[43] .

ولا شك عندي ان خصائص الفهلوة في الاستخفاف بالغير من ناحية وتأكيد الذات على هذا الأساس السلبي من ناحية أخرى تكاد لا تبعد كثيراً عما ذكرته في مطلع هذا الحديث من ميل العرب قبل الحرب ، وحتى بعدها ، إلى الاستهتار بقوة العدو وطاقاته والاستخفاف به وتأكيد النفس ، هذه النفس غير المطمئنة إلى وضعها في أعماقها ، عن طريق الادعاءات الرنانة والتقيـد بالمظاهر الخارجية والشكليات التي جعلتنا ننظر إلى مظهر امتلاك طائرات الميغ وكأنه امتلاك عـدد من الخرزات الزرقاء التي سوف تحمينا من الشر المحدق بنا .

تنطوي الشخصية الفهلوية على شعور حقيقي بالنقص تجـاه الآخرين وهي لا تستطيع البوح بـه لأنها تتمسك بقيم الحياء والخوف من الفضيحة أكثر مما تتمسك بالواقعية والموضوعية وبضرورة الاعتراف الصريح بالنقص لمعالجته والتغلب عليه .

---

(43) عصام الدين حواس ، « ثورة الأخـلاق »،دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧

ولذلك تراها بارعــة في المسايرة السطحية والمجاملة العابرة الــتي يقصد منها تغطية الموقف الحقيقي وتورية المشاعر الحقيقية كما في عباراتنا الدارجة «معليش وبسيطة وماشي الحال وكلنا أخوان». وكلنا يعرف إلى أي حد تتصف علاقات الدول العربية عــادة بهذه المسايرة السطحية والمجاملة العابرة التي يقصد منها تغطية المواقف كما هي على حقيقتها وينطبق هــذا الوصف ، بصورة خاصة ، على علاقات الدول العربية بعضها ببعض قبل الحرب الأخيرة وحتى بعدها . كما ان الشخصية الفهلوية لا ترتاح للعمل الجماعي الطوعي ولا تطمئن له بسبب ما قد يعرضها له من المواقف الحساسة التي لا تطمئن اليها ولا تريدها خوفاً من افتضاح مواطن ضعفها خلافاً للمظاهر التي تحب أن تظهر فيه. وإذا كان لا بد من العمل الجماعي فقد افتقد هذا العمل كل ما يمت الى «روح الفريق» بصلة وافتقد معرفة الفرد لدوره في المجموعة وتنفيذه بانسجام مع الآخرين لإنجاز الهدف العام . وواضح أن العلاقات بين الدول العربية تتصف الى حد كبير ، عند اضطرارها للعمل الجماعي الطوعي ، بالموافقة الشكلية من قبيل المجاملة والمسايرة والأخوة دون التزام حقيقي بما تتطلبه المسؤولية الجماعية ، كما تتصف ببقية الصفات المذكورة والحساسيات المشار اليها .

عندما تجد الشخصية الفهلوية نفسها في مأزق حرج سيفضح حتماً عجزها وتقصيرها تبرع في ازاحة المسؤولية عن نفسها واسقاطها على قوى خارجية يمكن عن طريقها تبرير النتائج

السلبية التي جاءت على يدها . وكما ان الطالب الفهلوي العربي لا يلوم نفسه عند الرسوب في الامتحان بل يلوم الحظ والأستاذ ، والأسئلة الصعبة ، والدولة ، والنظام ، والذات الالهية ، كذلك تلوم الأمة العدو ، والاستعمار ، والغدر ، والحظ وكل ما يخطر لها على بال فتهوّن بذلك على نفسها وتحفظ ماء الوجه وتصون المظاهر وتراعي المشاعر وترفع المعنويات عوضاً عن أن تنفذ الى بيت الداء وتستأصله . لذلك لاحظنا في مطلع هذا البحث كيف أن الاعتراف بالمسؤولية العربية عن نتائج الخامس من حزيران جاء متأخراً وصيغ بلغة حذرة متحفظة مترددة لا تتعدى مستوى التعميم الذي لا يخرق اللياقات التقليدية ولا يزعجها . كما أنه من الجلي أن الفهلوة ترتبط ارتباطاً مباشراً بمفاهيم الفروسية للرجولة والشرف والكرامة والشهامة والشجاعة التي ذكرتها في الصفحات السابقة . اذ تزدهر الشخصية الفهلوية في المجتمعات التي ترتكز في سلوكها ونظراتها الى نمط الحياة التقليدي الاتباعي حيث تتوجه انظار الافراد وافكارهم وردود فعلهم نحو التقاليد العريقة والسنن السلفية المتوارثة مما يجعل الفرد في مثل هذه المجتمعات انساناً محافظاً عقلاً وجسداً يدور دوماً في فلك محدود هو فلك اتباعي يبقي القديم على قدمه ويحافظ عليه لينقله الى ابنائه .لذلك يتصف هذا الانسان بالبطء الذي يعم ايقاع الحياة في بيئته ولا يتوجه ، بحكم تربيته ونشأته ، نحو تخطي ماضيه وتجاوز واقعه وابتكار الحلول

الجديدة لمشاكله القديمة ، أي أنه يفضل دوماً أن يسلك الطرق المتعارف عليها وأن يقبع في القوالب الجاهزة التي يرتاح اليها. وعليه نرى أن هذا المجتمع يفضل كبير السن على حديثه والشيخ على الشاب بمعزل عن الكفاءات التي يتمتع بها كل منهما وكأن مجرد البقاء على قيد الحياة يرفع من شأن الانسان ، او يكسبه حقوقاً معينة بغض النظر عما انجزه او حققه . وقد كشفت حرب حزيران عن عدد كبير من الشخصيات في المراكز الحساسة العسكرية والعلمية والتقنية كان رصيدها الوحيد ومبرر بقائها مرور الزمن والقدم واحترام السن والمركز والقدر والمقام بينما كان ينبغي ان يتولى امور هذه المراكز أفراد يتمتعون بشخصيات لا تقيم وزناً في عملها الا للنتائج الايجابية الفعالة ، اي للانجاز والكفاءة والانتاج الملموس فحسب .

أقدم على ذكر هذه الامور لأن صفات البطء ونزعة التقليد والتقيد بالقوالب الجاهزة والالتصاق بها والابتعاد عن الابتكار السريع والمبادهة المباشرة في اتخاذ القرارات قد تركت آثاراً سلبية خطيرة جداً على تنظيماتنا العسكرية وعلى مفهومنا لطبيعة الحرب الحديثة وكانت مسؤولة الى حد كبير عن الهزيمة السريعة التي حلت بنا . لا شك ان كل من تابع اخبار الحرب بشيء من الدقة والموضوعية قد اكتشف أن من أهم نقاط الضعف التي اتصف بها الجيش العربي في سيناء عدم قدرته على المناورة السريعة والحركة الدائبة بغية التكيف السريع مع تطورات

المعركة الحالية المباشرة . لقد اعتمدت اسرائيل استراتيجية الحرب الصاعقة الخاطفة التي تقوم على حرية الحركة المطلقة كما هو معروف في حروب الصحراء والسهول . وقد اشار الرئيس عبد الناصر الى هذه الحقيقة في احدى خطبه حيث ذكر « بأن الاسرائيليين طبقوا مبادىء الحرب المفاجأة ، وبعد كده خفة الحركة ، بعد كده المرونة ، وبعدين الحشد » . ثم أضاف قائلا « انهم استطاعوا بتطبيق الاربع مبادىء دي انهم يكسبوا حرب الايام الستة »[٤٤]. أما جنودنا في سيناء فقد سيطرت عليهم العقلية المحافظة التقليدية فحاربوا بعقلية الاستحكامات واستراتيجية الصمود الجامد . طالما ان العدو كان يهاجم مواقعهم مباشرة ووجها لوجه استبسلوا واستشهدوا دفاعاً عنها ولكن عندما كان يلجأ الى بعض الخدع والحيل القائمة على الحركة السريعة والمناورة الخفيفة اخترق مواقع الدفاع العربية بدون عناء كبير ، ويبدو أن جزءاً كبيراً من الحرب لم يكن سوى سلسلة من هذه الحيل المتحركة نصبها جند العدو أفخاخاً لجنودنا فوقعوا فيها بدون استثناء تقريباً . والمقطع التالي من خطاب الرئيس عبد الناصر يوضح واقع تصور العرب للحرب على اساس المواجهة المباشرة التقليدية الفاقدة للمزايا الديناميية المطلوبة في الحرب الحديثة (لاحظ تشديد عبد الناصر والحاحه المستمر على

---

(٤٤) الانوار ، ٣٠ نيسان ١٩٦٨ .

فكرة التلاقي وجهاً لوجه) قال :

« واحنا في معركة حزيران الماضي لم تلاقي قواتنا المسلحة القوات الاسرائيلية وجهاً لوجه كلها . جزء من قواتنا المسلحة واجه القوات الاسرائيلية اما الجزء الاكبر فلم يواجه قوات اسرائيل والجزء اللي واجه القوات الاسرائيلية حارب بشجاعة وبسالة وكبد العدو خسائر فادحة .. محدش يقدر ينكر أن المعارك اللي احنا دخلناها وجهاً لوجه استبسل الناس ومات الناس وكبدوا العدو خسائر كثيرة »[٤٥]

كما يتضح نفس النمط من التفكير العربي حول تصور القتال على الطريقة الفروسية في اعتزاز رئيس وزراء الاردن في فترة الحرب ببسالة الجندي الاردني (وهذا ما لم ينكره احد اصلاً بالنسبة للمقاتل العربي عامة) حيث يقول عن الاسرائيليين « وهم يعرفون ـ من قبل ومن بعد ـ كيف يقاتل الجندي الاردني، إذا كانت المواجهة بين جند وجند، لا بين جند ونيران تنصب عليهم من السماء * . وما فائدة هذا الاعتزاز إذا كانت طبيعة الحرب قد تغيرت ولم تعد تعتمد على المواجهة بين الجند والجند

(٤٥) المرجع السابق

* (المؤامرة ومعركة المصير) ، ص ١٩٦ .

بل على النيران التي تنصب من السماء ؟ فاما ان نواجه هذه النيران بنيران مثلها واما أن نبطل مفعول تفوقها عن طريق استخدام استراتيجية حرب التحرير التي ترفض فكرة المواجهة المباشرة مع العدو اصلاً . أما مجرد الاعتزاز بالبسالة الفروسية فلا طائل منه ولا فائدة ترجى إلا من باب جبر الخواطر .

ومثال آخر على ما أقول المدرعات العربية المدفونـــة في حفر عميقـــة في الرمال بغية استخـــدام مدافعها القوية من خلف الاستحكامات الدفاعية ، غير أن دفن المدرعات على هـــذه الصورة يسلبها أهم ميزة تتصف بها الا وهي القدرة على الحركة والمناورة . بعبارة أخرى كنا في هذه الحرب مخلصين إلى ابعد الحدود لنمط حياتنا الذي لا يزال يعتمد في جوهره على التقاليد والاتباع لا على الدينامية والحركة والابتكار فاحتمينا بالمواقع المحصنة خوفاً من حرب الحركة والاندفاع ، علماً بأننا كنا قد تباهينا قبلها بالسرعة والكفاءة التي رافقت تحركات قوتنا من مكان إلى مكان ، أي أننا كالعادة ، تباهينا بالمظهر والشكل وتركنا اللب والجوهر على طريقة الشخصية الفهلوية .

في الواقع كان التمسك العربي التقليدي بالشكليات واللياقات والمظاهر والروتين المتبع شديداً الى ابعد الحدود بحيث لم يتمكن القادة والمحاربون العرب من تخطيها والتنازل عنها حتى في ادق اللحظات وأحرجها . وفيما يلي حادثة ، رواها

هيكل في احدى مقالاته ، تعطينا ابلغ مثل عن حقيقة مـــا أقول . ذكر هيكل (الاهرام ، ٢٨ / ٦ / ١٩٦٨) ان المشير عبد الحكيم عامر استقل طائرة حربية في الساعة الثـــامنة من صباح يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ متوجهاً الى احد المطارات في سيناء، حيث كان معظم قواد الجبهة « ــ بحكم المراسم التقليديـة المتخلفة اجتماعياً وعسكرياً وخصوصاً في زمن التأهب للحرب !ــ واقفين لانتظاره في مطار الوصول بعيدين عن مقار قيـــاداتهم الخ .... » اما بقية القضية فأصبحت معروفة .

ومن سلبيات الاتباع والتقـــليد التي انعكست على مجرى الحرب عجز الضباط الذين كانوا يشرفون على مجرى العمليـــات الحربية بصورة مبـــاشرة في سيناء عن تقبل مسؤولية اتخاذ القرارات الفورية السريعة وفقاً لتطور المعركة من ساعـة إلى ساعة وبدون الرجوع إلىالقيادات العليا باستمرار لتلقي الاوامر بالتفصيل في كل صغيرة وكبيرة . في الواقع كانت المبادهـــة في اتخاذ القرارات الحازمة وفقاً لما تفرضه اوضاع الميدان المباشرة المتقلبة والتكيف معها شبه مفقودة .أي اعتمد الضباط العرب طوال المعركة تركيبات استراتيجية وتكتيكية جـاهزة بينما فعل العدو عكس ذلك تماماً ولم يتمكن العسكريون العـــرب الخروج من قوالبهم الاستراتيجية المسبقة عن طريق الابتكـار والمبادهة ليواجهوا العدو كما كان يجب أن يواجهوه ، فكان ما كان من أمر المعركة . وصف ريجيس دوبريه هذه المعضلة بقوله :

> ولكن قوة التقاليد ، والالتصاق كالاسفنجة باشكال تنظيمية محددة، ومكرسة، ومتصلبة، بمرور الزمن ، يمنع كسر هيكل جاهز ، والانتقال الى شكل نضالي جديد تفرضه حالة الحرب (٤٦) .

ولا يقع اللوم في هذا الفشل على الضباط وحدهم كأفراد ، لأن عقلية « ماكو أوامر » وذهنية « ما فيش تعليمات » أي الخوف من حمل مسؤولية التصرف أو عدم التصرف بدون موافقة أولي الامر منا لا تتجلى في ميدان القتال فحسب وانما هي جزء اساسي من نسيج المجتمع العربي وعاداته وطباعه وهو المجتمع الذي كوّن هؤلاء الضباط وأنتجهم . لقد نشأ هؤلاء الضباط في مجتمع تقليدي وفي أسر محافظة على الارجح تخضع لسلطان الأب في كل صغيرة وكبيرة من شؤونها وطلبت منهم دوماً اطاعة من هم أكبر منهم سناً ومرتبة ومقاماً والتقيّد بما هو معروف ومألوف ومتعارف عليه ولم تتح لهم فرصة ممارسة حق الاختيار في الامور الهامة في حياتهم (بما فيها الزواج) حتى يتعلموا معنى المسؤولية التي تتبع من فعل الاختيار والمبادرة الفردية . إذ لا يفترض في هذا النظام الاجتماعي السائد أن يمارس هؤلاء مثل هذه الاعمال والقرارات والاختيارات وتحمل

---

(٤٦) « ثورة في الثورة » ، ص ٩٠ .

مسؤولياتها الا بعد أن يصبحوا هم ارباب عائلات أو في المراكز القيادية العليا . لذلك يبدو لي أنه من العبث أن نتوقع مـن ضباطنا في جحيم المعركة السلوك المرن والمبادهة الفردية السريعة وتحمل مسؤوليات القرارات الحاسمة بدون الرجوع إلى من هم أكبر منهم سناً ومنزلة ومرتبة بعد أن أنشأناهم نشأة تسير في اتجاه معاكس تماماً لانماط السلوك والقيم وردود الفعـل التي تفرضها حرب الحركة المطلقة وحرب الصحراء الحديثة . فاما أن يخرج مجتمعنا من قوقعته بقوة واندفاع لم يعرفها في السابق ليواجه هذه التحديات وأما أن يقبل بالهزيمة ويتقهقر إلى الوراء.

كل ما ذكرته عن عقلية « ماكو أوامر » المشهورة وذهنية « ما فيش تعليمات » لا يتعدى كونه وصفاً للواقع المؤلم الذي لم يتغير منذ الحرب العربية الاسرائيليـة الاولى بالرغم عن كل الاسلحة التي استوردناها والخضات السياسية التي مررنا بهـا والانظمة الثورية التي شهدناها . عندما وقعت الواقعة تبين ان العقلية الاولى هي المسيطرة حقاً على ردود فعل المقاتل العربي بدليل ما ذكره هيكل عن السلوك الذي ابدته بطاريات الدفاع عن المطارات في الجمهورية العربية المتحدة التي لم تفتح نيرانهـا المضادة على طائرات العـدو (والقنابل تتساقط فوقها) لأنها تنتظر الأوامر والتعليمات !! قال هيكل :

> فان بطاريات الدفاع عن المطارات وجـدت العدو فوقها فعلا يقذف قنابله ... وكان عليها

انتظار الامر بالبدء في اطلاق النار عليه ومع أن ذلك يبدو الآن جنوناً مطبقاً فان المركزية التقليدية فرضته في لحظة من احرج اللحظات واخطرها . (الاهرام ٢٨ / ٦ / ١٩٦٨) .

IV

لا بد لي من أن اتطرق إلى موضوع مهم دار حوله نقـــاش عنيف في بعض الصحف والمجلات العربية وهو الدعوة للنضال ضد اسرائيل والاستعمار على الانموذج الفيتنامي . بالنسبة لهذا الانموذج في تحرير البلاد نجد امامنا شعباً يقال انه فقير متخلف أعزل ،قاوم بضراوة وبأعمال بطولية فائقة الاستعمار الفرنسي. وهو يواجه اليوم اعظم قوة حربية في العالم بطائراتها وقنابلهــا وأحدث اسلحتها — فلنحذ حذوه ولنسر على طريقه في حرب التحرير الشعبية . ينبغي أن ندرك بهذا الصـــدد ، أولا أن حروب التحرير الشعبيــة المنتصرة ، وليس مجرد مقاومة الاحتلال ، لم تأت بنت ساعتها وعلى اساس دعوة سريعــة لانتهاجها بعد فشل منيت به جيوش البلاد النظامية ، بل هي تأتي نتيجة لتصورها مسبقاً على انهــا ستكون حرب تحرير شعبية منذ بدايتها حتى نهايتها ، أي انها لا تنبثق عادة عــن رغبة في التعويض فجأة عما فقده الشعب بسبب فشل عسكري تقليدي . وان هي انبثقت عن مثل هذا التصور ستكون في الغالب هزيلة ومبتورة في فعاليتها ونتائجها وتكون اقرب إلى

المغامرة منها إلى العمل الثوري الجرىء . تتمتع حرب التحرير الشعبية بأصالتها ونظمها ، ولا تجوز الدعوة اليها كبديل سريع لفشل الآلة الحربية النظامية التقليدية أو اللجوء اليها « كخط ثان » للعمل العسكري بعد فشل الخط الاول . ما دام انه لا سبيل أمام العرب إلا الأخذ بأسلوب حرب التحرير الشعبية ينبغي عليهم أن يأخذوا بها كواقع قائم بذاته لا كتدبير اضطررنا لاختياره لأننا لم نعرف كيف نحرز النصر من خلال تدابير عسكرية كنا قد فضلناها على غيرها. ويبدو اننا لا نزال نفضلها على الصعيد الرسمي على أقل تعديل . والمهم في الموضوع هو أن تظهر حرب التحرير الشعبية العربية إلى حيز الوجود وبعدها سوف تفرض نفسها على القيادات المترددة بمقدار عنفها ونجاحها العملي .

ثانياً ، من نافل القول أن تجارب النضال الشعبي المسلح لا تنتقل بصورة آلية من بلد إلى آخر أو من منطقة إلى منطقة ، بل على كل حركة شعبية تقود مثل هذا النضال أن تطور اساليبها المناسبة ، على ضوء تجارب الغير ، لمواجهة العدو الغازي والمحتل. وحتى هذه الساعة لا يمكننا أن نتكهن بنوعية الاساليب التي سيطورها النضال العربي ، إن هو قرر نهائياً دخول المعركة على نطاق شامل بواسطة حرب التحرير الشعبية . أقول أن يطور النضال العربي لتحرير فلسطين أساليبه الخاصة لأن أساليب النضال الفيتنامي لا يمكن أن تنطبق جملة وتفصيلاً في معركتنا مع العدو

إذ لا يستطيع الفدائي العربي أن يدخل متخفياً إلى تل أبيب أو حيفا كما يستطيع المناضل الفيتنامي أن يدخل سايغون باعداد كبيرة ويبقى فيها لفترات تطول وتقصر ، بين شعبه وأهله ، وفقاً لمتطلبات العمل العسكري . اما اذا بقي الفدائي العربي بين أهله في الضفة الغربية مثلا فانفعاليته تصبح محدودة، إذ ليس لاسرائيل في الضفة الغربية أية منشآت هامة يهاجمها ، فينحصر نطاق عمله في الاغارة على الدوريات العسكرية ونسف المعدات .

ثالثاً ، يبدو لي أن فيتنام قد نجحت إلى حد كبير في التغلب على التخلف وخاصة انماط السلوك التقليدية البطيئة التواكلية التي تقترن دوماً بواقع التخلف في بلد ما . فمنذ أن انشأت دولة فيتنام الاشتراكية وهي تتمسك بكل حزم بالتعريف الذى اطلقه لينين على الاشتراكية : الاشتراكية هي حكم السوفيات زائد كهربة البلاد . أي أن برنامج التصنيع الأساسي وتحديث وسائل الانتاج لم يتوقفا في فيتنام الاشتراكية حتى في أقسى ظروف الحرب والقصف الجوي . وقد اتقن المناضل الفيتنامي اتقاناً تاماً ما فشل في تنفيذه الجندي العربي في الخامس من حزيران وأعني حرب الحركة الدائبة المستمرة ، حرب المرونة والمبادهة والقرارات السريعة الجريئة المباشرة ، حرب ردود الفعل السريعة التي تنتهز ابسط الفرص لتحولها لصالح النضال وضد العدو المستعمر ، والتي تسيّر الحرب بعقلية علمية حقاً

تعرف كيف تبتكر من أتفه المواد اسلحة فتاكة فعالة ضـــد العدو ، وتحول المـــادة الخام المتوفرة ، مهما كان نوعها ، الى طاقات تعزز قدرة المحاربين على تدمير العـــدو والاستمرار في القتال . العقلية التي تستطيع أن تبتكر بهذه المهارة وتنظم بهذه الدقة وتستخرج الطاقات البشرية والطبيعية الكامنـــة لتحولها إلى قوى فعالة قد تخطت مرحلة التخلف بدون ريب أو شك . كما أن نجاح النضال الفيتنامي يعود – إلى حد كبير – الى مستوى التخطيط والتنفيذ الذي تتمتع به الاجهزة الفيتناميـة وإلى نوعية القيادات والتنظيمات السياسية والاجتماعية في ذلك البلد وكلها تعمل على مستوى رفيع جداً من التنسيق والتخطيط والتجربة والحنكة لتستخرج جميع طاقات الشعب الكامنـــة وتحرك مصادر المادة البشرية في خدمة النضال التحرري. وليس ادل على ذلك من الهجمات المركزة التي قام بها الفيتناميون المناضلون مع بدء السنة القمرية الجديدة في طول البلاد وعرضها هذه الهجمات على جميع مواقع العدو مرة واحدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب التحريرية من حيث دقتها وتنظيمها وفعاليتها وتنسيقها وجرأتها ، وذلك باعتراف العدو الاميركي نفسه . لقد تحوّلت حالة الحرب في فيتنام تحت اشراف هذه القيادات إلى مناسبة وأداة لتحقيق تغيرات اجتماعية وتنظيمية وثورية في حياة الشعب الفيتنامي كان يتعذر الاقدام عليها بصورة جذرية في الاحوال العادية . والحق يقال بأنه لا يجوز لأحد أن يطلق الاحكام المسبقة على مجرى المقاومة العربية

المسلحة للاحتلال الاسرائيلي أو أن يتكلم عنها بصورة تقريرية جازمة لأن التجارب السابقة علمتنا ان مثل هذه الاحداث تخضع لطفرات وهبات تهبها قوة وطاقات عظيمة لم يكن بالامكان حسابها أو التنبوء بها مسبقاً . لذلك يبقى تصعيد العمل الفدائي الفلسطيني داخل الاراضي المحتلة هو طليعة معركة التحرير .ولكن كي يتقدم العمل الفدائي العربي من مستوى العمل الفدائي إلى مستوى حرب التحرير الشعبية يجب أن تجر الدول العربية المحيطة بفلسطين العدو الى حرب طويلة الامد يتلقى فيها العرب الضربات ويقدمون التضحية بدون استغاثة أو استسلام حتى يتم لهم استنزاف قوة العدو وطاقاته المركزة تدريجياً . المشكلة الاساسية اذن لا تكمن في تحويل الارض المحتلة الى فيتنام جنوبية بل في مدى استعدادنا لتحويل الدول العربية المتاخمة لفلسطين الى فيتنام شمالية وذلك على جميع المستويات. إذ أن حرب التحرير الشعبية تتطلب بالاضافة إلى التنظيمات الحزبية والسياسية والشعبية القادرة حقاً،الى قواعد للتموين والانطلاق والتقهقر يفترض أن توفرها الدول العربية المعنية مباشرة بمعركة تحرير فلسطين . غير أنه علينا أن نقر ونعترف — بكل أسف — أن فكرة التحرير الشعبية لم تلاق حتى اليوم استجابة فعلية وتقبلا قوياً في المشرق العربي كأضمن وسيلة لمواجهة اسرائيل . ويبدو أن العرب بصورة عامة ،ذ بما في ذلك الانظمة العربية التقدمية ، لا يميلون فعلاً الى التخا

الخطوات اللازمة للبدء بحرب التحرير الشعبيـة وجر العدو الى معاركها . فالاستعدادات العسكرية لترميم ما تصدع بعــد المعركة من قوتنـــا الحربية تسير في اتجاه اعادة بناء القوة العسكرية العربية على اساس الجيوش النظامية باسلحتها المعروفة . وينصب الانتباه اليوم بالنسبة للدور العسكري الذي يمكن أن تلعبه المنظمات الشعبية على فكرة المقاومة الشعبيـة فحسب ولا يمكن لحرب التحرير الشعبية ان تقوم على مجرد المقاومة بـــل تتطلب تمسكاً كلياً بالمواقف الهجوميـــة المستمرة التي تفرض المعـارك على العدو وفقاً لمصالحها هي وليس لمصالحه . وسأعود لمناقشة بعض القضايا الحيوية المتعلقـــة بمسألة حرب التحرير الشعبية وصلتها بنواح أخرى من حياة المجتمع في بقيـة البحث .

V

لقد قيل الكثير قبل الهزيمة وبعدها خاصة عن اهميـة العلم الحديث والبحث العلمي والتطبيق التكنولوجي بالنسبة للمجتمع العربي ، وبالنسبة للدول العربية الاكثر تقدماً وتقدمية على وجه التحديد . قيل ذلك باعتباره ضرورة حيوية في مواجهة التحدي الاسرائيلي بالتخصيص وتحديات الحضارة الصناعيـة الحديثة على وجه العموم . وقد ورد معنا قول هيكل « بأنه ليس هناك حل آخر امـام الطرف العربي على خط المواجهـــة الشاملة غير أن يكون هو متعلماً وعصرياً . » ومن المعروف إن الرئيس عبـد الناصر شدد في معظم خطبه بعد الهزيمـة على موضوع العـــلم والتكنولوجيـــا كما حدث ، مثلا ، في الكلمات التي القاها في

احدى زياراته للمواقع العسكريـة على طول جبهة القتـــال حيث قال :

ان الحرب اصبحت اليوم حرباً علمية قبل ان تكون أي شيء آخر . ولا يمكن ان نحقق هذا التفوق إلا على أساس استيعاب كامل للعلم والتكنولوجيا. وانتم كقيادات تحتاجون الى العلم والتكنولوجيا. ونحن من جانبنا نسعى جـاهدين للحصول على أحدث الاسلحة . ولقـد صممت على ان يأتي الخبراء السوفياتيون لكي نعرف منهم اسرار واساليب استخدام الاسلحة التي حصلنا عليها من الاتحاد السوفياتي . ان اعداءنا يتدربون منذ سنوات تدريباً تكنولوجياً ولديهم مخـــابرات ممتازة . ويطبقون ما يتعلمونـه . فاذا لم نكن على مستوى ممتاز من التدريب والمعرفة بالعلم والتكنولوجيا فاننا لن نتمكن من تطبيق ما في الكتاب. واذن يجب ان نستوعب المعلومات والمعرفة » [٤٧] .

هذا كلام جوهري ومهم وكان يفترض في القـــادة العرب

---

(٤٧) النهار ، ١٣ آذار ، ١٩٦٨ .

الثوريين أن يدركوا خطورة معانيه منذ ان طرحوا شعاراتهم الاشتراكية اذ لا تبنى الاشتراكية بدون التبني التام والاحتضان الكامل للعلم الحديث ومؤسساته وتطبيقاته ومناهجه . وعليه بامكاننا استقراء مستوى الاهمال الذي لحق بتنظياتنا ، حتى في بديهيات الامور ، من تصريحات المسؤولين والقـــادة العرب أنفسهم . واذكر على سبيل المثال بعض اقوال وزير الحربيـــة الحالي في الجمهورية العربية المتحدة الفريق اول فوزي الذي قال في حديث له :

ومن الخبرات التي اكتسبناها من هذه المعركة الاهتمام برفع كفاءة ومقدرة وفعالية الجندي المقاتل ... واصبح ضرورياً ان يكون الجندي المقاتل الصالح فرداً من مستوى ثقافي معين ... ومن ضمن النتائج التي اخذناها في المعركة السابقة عدم قدرة الجنـــدي الامي على تفهم اسلوب المعركة ... فلمـــاذا ننتقي الامي وهو غير مطلوب لالتزامات المعدات الحديثة ؟ ومن هنا جاءت اسبقية الالتحاق بالقوات المسلحة كي تقتصر على المتعلمين والمثقفين وهذا وفر لنـــا اشياء كثيرة. فاذا كان لدينا الكفاية من الرجال فلماذا لا نختار الاحسن ؟ والاحسن هنا يعني المقارنة على أساس الناحية العلمية والنـــاحية

الثقافية ، إذ أن المطلوب سيتجاوب تجاوباً فردياً مع تعقيدات الاسلحة الحديثــة . وكل تحرك في القوات المسلحة سواء في التدريب أو في التخطيط أو مفهوم العمليات كله مبني على اسس علمية [٤٨].

هل كانت هزيمة الخامس من حزيران حقاً ضرورية ليدرك القادة العرب ، والثوريون منهم خاصة ، هذه البديهيات البسيطة حول « عجز الانسان الامي عن تفهم اسلوب المعركة » وعدم مقدرته على التفاعل مع الاسلحة المعقدة ، وضرورة اختيـــار الانسان الافضل للمنصب المنـــاسب الخ ... ام اننا نظرنا الى العلم الحديث نظرتنا الى شعار من الشعارات المطروحـة بدون ادراك منا لما تعنيه العقلية العلمية على مستوى الممارسة اليوميـة والتطبيق الفعـلي المستمر المتراكم ؟ لخص الدكتور سمير حنـــا الموقف العربي من العلم الحديث على النحو التالي :

عندما نقيّم دروس النكسة ، ونستمد منهـا مفاهيمنا ، يجب ان نتـذكر ان اهم هـــذه الدروس هو اننا قد اهملنـــا العلم في السنوات الماضية . نظرنا اليه وعاملناه تمامـاً كما ينظر العمدة الريفي الى آلة الري الحديثة التي اشتراها.

---

(٤٨) الانوار ، ١١ نيسان ١٩٦٨ ص ٥ .

فهو يريها لضيوفه ، وهو يتحدث عن مقدرتها السحرية ، وهو يتفاخر بما دفعه فيها ، وهو في الوقت نفسه لايديرها إلا في المناسبات ويستعمل في العادة الساقية والشادوف في ري مزارعه .

ومن ثم دعا الدكتور حنا المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة الى اتخاذ الخطوات الضرورية لوضع الاسس الثورية السليمة للتغلب على ظاهرة التخلف العلمي وشدد على ان :

كل بلاد العالم الاشتراكية توفر من قوتها لتنفقه على جامعاتها، واهمال الجامعات مظهر من مظاهر التخلف وفي ظل نظامنا هو مظهر من مظاهر الفكر الرجعي [٤٩] .

لذلك ينبغي علينا ألا نبقى على مستوى التجريد والشمول والعموميات عند الكلام عن موضوع العلم الحديث بالنسبة للمجتمع العربي بل يجب أن ندخل في بعض التفصيلات والدقائق ليكون لنقدنا شيء من الجدوى . ولكن قبل أن اسجل ملاحظاتي حول هذه التفاصيل من الضروري أن اوضح للقارىء انني في كلامي عن مدى فاعلية العقلية العلمية ومنجزاتها في المجتمع العربي (وخاصة في الدول العربية التقدمية) ، لا

---

(٤٩) مجلة « الكاتب » ، القاهرة ، آب ١٩٦٧ .

أريد ابدأ الدعوة الى تأجيل النضال المباشر ضد الاحتلال أو تأجيل معركة التحرير مع الصهيونية الى أن نتغلب على التخلف العربي العلمي والتقني . في الواقع نحـــن مع الذين يؤمنون بان النضال في سبيل مجتمع عربي اشتراكي عصري وعلمي وحصين مرتبط ارتباطاً عضوياً ومباشراً بمعركة العرب ضد الصهيونية والامبريالية الدولية التي تدعمها .ولا ريب أنه باستطاعة الانظمة الثورية العربية اليوم – ان هي أرادت ذلك الاستفادة من دروس الهزيمة وحالة الحرب القائمة لخدمة غايات التطور العلمي والاشتراكي والاجتماعي في الوطن العربي (أو بعض اجزائه على أقل تعديل) وتعميق عناصره وافكاره ومقوماتـــه في الوجدان العربي والعقـل العربي ، كما يمكنها تحويل الازمة القائمة الى مناسبة لتحقيق تغييرات اجتماعية واقتصادية وتنظيمية ثورية في المجتمع تثبت الاشتراكية العلمية في الحياة العربية وتعمق جذورها . ان كل خطوة في هذا الاتجاه تشكل بحد ذاتهـــا تصعيداً للمعركة ضد الصهيونية والقوى الاستعمارية ودفعهـا إلى الامام . والامثـــلة عن الشعوب التي خاضت المعارك الوطنية التحررية الحامية ضد المستعمر وهي تبني في نفس الوقت صناعتها واشتراكيتها وتقدمها عديدة وقد مر معنا ذكر لبعضها ، وإلى ان نتعظ بهذه الامثلة ونستفيد منها على مستوى العمل اليومي والممارسة الفعلية لن ننجح في مواجهة التحديات المميتة المحيطة بنا ، على المستوى الجذري المطلوب .

يبدو ان بعض المعلقين على الاوضاع العربية بعد الهزيمة (وخاصة التقدميين منهم) افترضوا ان مناقشة الهزيمة من وجهة نظر المستوى العلمي السائد في بعض البلاد العربية المعنية مثلا وعلى اساس مسألة العصرية والتحديث في وسائل الانتاج والعلاقات الاجتماعية بمعناها الشامل ليس الا تهرباً من مواجهة الاحتلال ومعركة التحرير عن طريق حرب التحرير الشعبية (٥٠) . ودليلهم على ذلك هو حقيقة قائمة تقول ان رفع مستوى الوطن العربي علمياً وانتاجياً وتحويله إلى مجتمع عصري الخ ... يشكل عملية طويلة قد تستغرق اجيالاً بينما الاحتلال القائم على الارض العربية لا يحتمل كثيراً من الانتظار . لا شك عندي ان الاوساط الليبرالية العربية الداعية الى المجتمع العربي العصري تريد ان تجعل من الدعوة للتغلب على التخلف بديلا للرد العربي الوحيد المضمون النتائج على الوجود الصهيوني التوسعي في الارض العربية وهو حرب التحرير الشعبية . غير ان الخطأ الاساسي في هذا النمط من التفكير هو طرح القضية على نحو يخلق تناقضاً ظاهراً بين جهود الامة وقياداتها الثورية المرتجاة في التغلب على التخلف والسير باتجاه المجتمع العصري من ناحية وبين اسلوب حرب التحرير الشعبية (بما يستلزمه من تعبئة للجماهير وتنظيمها) في مواجهة العدو من ناحية اخرى .

---

(٥٠) راجع على سبيل المثال مقال محمد كشلي في مجلة « الحرية » ، بيروت ، ٧ آب ١٩٦٧ .

التعارض بين هاتين الغايتين ليس إلا وهماً إذ ان اساتذة حرب التحرير الشعبية الكبار في هذا القرن لم يتركوا فرصة تفوتهم إلا والحوا – نظرياً وتطبيقياً – على أنه من النتائج التي تفرزها حرب التحرير زعزعة السيج التقليدي للحياة الاجتماعية وضرب علاقاتها وعاداتها وقيمها المختلفة المتواكلة الكسولة البطيئة والمعادية لعملية التحديث نفسها والمعيقة لها . أي ان حرب التحرير – بنظر قادتها وتجربتهم – تسهل عملية التحديث وتسرعها بصورة لا نظير لها وتمهد الطريق بشكل جذري امام بناء المجتمع الاشتراكي العلمي العصري بعد انتهاء الحرب . اهمية حرب التحرير الشعبية لا تكمن في مجرد نتائجها « السلبية » مثل طرد المحتل والتحرر من سيطرة المستعمر كلياً ، بل في نتائجها الايجابية لأن اشتراك الفرد المباشر وغير المباشر في المقاومة والجهود الحربي الشعبي يؤدي بالضرورة الى اتساع افقه ليستوعب وجود وطنه وامته وليس وجود عشيرته وامرته فحسب، كما يخلق فيه الاحساس باهميته العضوية في الجهود القومي وبنائه ويكرس فيه قيم الانضباط والانتظام وتقدير العمل والزمن الى آخر ذلك من الاعتبارات العامة والضرورية في عملية التحديث وبناء الدولة العصرية الاشتراكية [٥١] .

---

(٥١) راجع دراسة الدكتور سعد الدين ابراهيم « الحرب الشعبية والتعبئة العامة »، (دراسات عربية ، بيروت ،آب ١٩٦٨).ومقال الدكتور جمال حمدان « نحن والدولة العصرية » ، (الفكر المعاصر ، القاهرة ، تموز ١٩٦٨).

تمكن المناضلون الثوريون في الفيتنام من حل المعادلة الصعبة في تعطيل التفوق العلمي والتكنولوجي الأميركي وتحييده لصالحهم بعقل علمي مماثل بلغ - من خلال تجاربهم السياسية والنضالية والعسكرية الشعبية - مستوى من الرقي العلمي في التخطيط والابتكار والتنظيم والدقة في التنفيذ لم تبلغه أية ثورة شعبية من قبل ولم يقترب منه العرب أبداً بالرغم عن كافة الأعتدة الثقيلة العصرية والأجهزة الدقيقة الحساسة التي كدسوها في مخازن سلاحهم ومطاراتهم .

ينبغي أن أذكر بالاضافة إلى ما سلف أن اية محاكمة شبة متكاملة للهزيمة بمقدماتها وذيولها لا يمكن أن تهمل مسألة التخلف العربي في المجالات العلمية والتقنية والاقتصادية لأن الاعداد لمعركة التحرير سار منذ الحرب العربيه الاسرائيلية الأولى على أساس الحرب بالمعنى التقليدي وعلى أساس إعداد الجيوش النظامية الحديثة وتحضيرها لمعارك حربية كبيرة ضمن استراتيجية عسكرية كلاسيكية ، ولم يشمل هذا الاعداد للمعركة ، في الحقيقة ، أي تصور جدي لاتباع حرب العصابات أو حرب التحرير الشعبية إلا على أضيق نطاق . حتى جيش التحرير الفلسطيني انشأ ، على ما يبدو ، على طريقة إعداد الجيوش النظامية بما في ذلك فرق الصاعقة والفدائيين . بعبارة أخرى حين نتعرض للهزيمة بالدرس والتحليل لاستخلاص دروسها وعبرها علينا أن نبدأ محاكمتها على أساس طبيعة الاستعداد العربي الذي

دخلنا به المعركة وواقعه (لا على أساس تصورنا اللاحق لما كان يجب أن تكون عليه الأمور) ومدى فعاليته عند وضعه على المحك لإظهار الفجوات والثغرات والأخطاء التي فضحتها المعركة في جهود سنوات وسنوات من الاستعداد المفترض للمعركة .لذلك لا بد لكل من يعالج موضوع الهزيمة على هذه الأسس من أن يتعرض لمستوى البحث العلمي السائد في البلاد ومستوى الاعداد التقني المتوفر فيها ومدى سيطرتنا الحقيقية علىاقتصادنا وموارده إلى غير ذلك من الموضوعات المرتبطة ارتباطاً عضوياً ومباشراً بنجاح نوع الحرب التي اختار العرب ان يواجهوا إسرائيل عن طريقها . بعبارة أخرى اختار العرب اتباع أسلوب معين من الحروب وأعدوا أنفسهم له في مواجهة إسرائيل بــــدون أن ينتبهوا الانتباه الكافي إلى نوعية المستوى التقني والعلمي والفني والعصري الرفيع الذي تتطلبه البلاد بأجمعها لتتحمل عبء هذا النوع من الحروب في النصف الثاني من القرن العشرين ، كما انه مطلوب من العرب ألا يعودوا إلى الوقوع في الخطأ نفسه بالنسبة لحرب التحرير الشعبية فيخوضوها بدون الانتباه المركز إلىكافة العوامل والاعتبارات(سياسية واقتصادية وتنظيمية وإيديولوجية وتعبويـــة الخ ...) التي يجب أن تحيط بالجهود الحربي الشعبي وتدعمه وتواكبه ليحقق النجاح والنصر .

١) يجب أن نكون على وضوح تام بـــأن المستوى العلمي والتكنولوجي الجيد في بلد ما لا يتحدد بمجرد توفر الخـــبراء

والآلات والمعدات الحربية وغير الحربية ، أو بتوفر بعض الصناعات والمشاريع الانمائية . كل هذه الأشياء موجودة في بعض أرجاء الوطن العربي ، وحين لا تكون فباستطاعتنا استيرادها أو شراؤها . وجود هذه الأشياء في حد ذاته لا يعني بالضرورة أن بلداً عربياً ما قد حسن مستواه العلمي والتكنولوجي والصناعي بصورة ملموسة وفعالة يمكن الركون إليها في الساعات الحرجة والأزمة الملحة . ان مجرد الحصول على ۲۰۰ طائرة ميغ أمر ضروري حين نكتشف أن العدو حصل على ۲۰۰ طائرة ميراج ولكن هذا العمل بحد ذاته هو أضعف الايمان ولا يشكل الرد الكافي والحاسم على الطاقات التي اصبحت متوفرة للعدو باستقدام هذا العدد من الطائرات ، إنه ليس إلا الخطوة الأولى واللازمة لتحقيق مثل هذا الرد . الواقع هو أن الرد المطلوب يشمل بالاضافة إلى المعدات والآلات والطائرات والخبراء نوعية معينة من العقلية والنفسية والخلفية الثقافية وردود الفعل الجسدية التي غرستها الثورة الصناعية في الانسان الحديث وثبتها الانقلاب العلمي فيه بحيث أصبحت جزءاً من طبيعته وعفويته وردود فعله وأفكاره التلقائية إن كان قابعاً في طائرة الميغ أو في معمل يصنع الشحم الذي لا يمكن للمدرعات أن تسير بدونه .

وكي لا نبقى على مستوى التعميم باستطاعتنا أن نذكر أمثلة بسيطة تبين ما نعنيه بالنسبة لردود الفعل الجسدية التي يتطلبها التفاعل الجدي مع الآلة وخاصة الآلة المعقدة الدقيقة لنستخلص

منها أقصى إمكاناتها وطاقاتها وان نقارنها بنوعية ردود الفعل الجسدية التي اعتاد عليها الانسان في مجتمع لا تقوم الآلة فيه باي دور مهم . تشكل الأدوات الزراعية البدائية (المحراث التقليدي مثلاً) في الواقع امتـــداداً لأعضاء الجسم الانساني ليس إلا ، وتخضع بمجملها لإيقاع حركـــة الجسم الطبيعية وردود فعله التلقائيه. أما الآلة المعقدة فهي تفرض على جسم الانسان إيقاعها الخاص وتتطلب منه تدريب جسده وردود فعله حـــتى تصبح منسجمة مع حركة سيرها ، وان لم يفعل الانسان ذلك تعرض للضرر لأن أي تلكؤ في حركته، مهما كان طفيفاً ، قد يؤدي به إلى فقدان أصبع من أصابعه أو أي عضو آخر من أعضائه كما أن أي إهمال ، مهما كان تافهاً ، او اي انحراف ، مهما كان بسيطاً ، عن الخط الذي تفرضه حركة الآلة قد يعرض حياته للخطر او مصالحه للخسائر الجسيمة . وعملية التكيف مع إيقاع الالة ليس بالأمر البسيط على الاطلاق بل يتطلب مواهب معينة ، حسب الأوضاع والظروف ، وتدريباً طويلاً كثيراً مـــا يكون مضنياً يستغرق سنوات بالنسبة للأفراد واجيالاً بالنسبة للمجتمعـــات والشعوب . وكلما اصبحت الالة اكثر تعقيـــداً زادت الحاجة الى التدريب الطويل والدراسة المعقدة الخ ... ويقـــدر الخبراء ان الفاصل الزمني بين إدراك سائق السيارة العادية للخطر الماثـــل امامه وبين رد فعله الفوري لتفادي الخطر يتراوح بين جزء من٥ من الثانية الى جزء من ١٠ منها . وهذه المقدرة على الرد السريـــع مهارة مكتسبة في مجملها نتيجة للمراس والتمرين . اما الطيار

الذي يقود طائرة نفاثة حربية فعليه في كثير من الأحيـــان ان يقلص هذا الفاصل الزمني بين إدراكه للخطر ورد فعله المناسب لتجنبه الى حدود جزء من ١٠٠ من الثانية مثلا وهذا مستوى من المهارة العقلية والجسمية الذي لا يتسنى تحقيقه إلا لنخبـــة ممتازة من الأفراد ، ممتازة بالنسبة لمواهبها الفطرية وتدريبهـــا العملي والتقني. وهنا باستطاعتنا ان نتصور المصاعب التي سيلاقيها الفرد المعني في تحقيق هذا النوع من المهارات الرفيعة إذا كان قد نشأ في مجتمع ريفي مثلاً لا تتوفر فيه إلا الادوات البدائية ولم تتح له فرصة التفاعل مع الالات المعقدة إلا في فترة متأخرة نسبياً من حياته ، كأن يحدث ذلك عند نزوحه إلى المدينة او التحاقه بالقوات المسلحة او انتسابه لإحدى الجامعات في فرع من فروعها العلمية . وهنا تكمن أهمية اقوال وزير الحربية في المتحدة ، التي اشرنا اليها ، حول الجندي الامي وحول المستوى الثقافي والعلمي المطلوب في المقاتل الصالح كما دعاه .

ولا بد لي من ان اذكر هنا ان هذا التناقض بين الالة المعقدة من ناحية وبين الانسان الذي لم يتكون عقلياً وجسمياً في بيئة تسيطر عليها الالة هو مصدر الشكوى المستمرة والتذمر الدائم الذي نسمعه دوماً في المجتمعات المبتدئة بعملية التصنيع حول آفات الاهمال في المصانع والتخريب غير المقصود في المعدات والالات الخ . . والقضية لا تتعلق بمجرد إفهـــام العامل او المسؤول بأن الالة الموجودة في المصنع باهظـــة الثمن وذات

أهمية قصوى بالنسبة لاقتصاد البلاد وأمنها ولذلك يجب ضمان سلامتها وعدم سوء استعمالهـا بل تتعلق أولاً بعادات جسمية وعقلية جديدة يجب أن تصبح طبيعة ثانية في الانسان أي أن تنغرس فيه حتى تصبح جزءاً من عفويته وحركتـه التلقائية فيستطيع بذلك أن يقوم بها بـدون ارتباك أو تلكؤ حتى في ساعات الضيق والازمات والخطر .

٢) تبين بعد الحرب الاخيرة ان الجيوش العربية لم تكن تعوزها الاسلحة والمعدات الحربية بل انها كانت تمتاز على الجيش الاسرائيلي في كثير من نواحي التسليح والتجهيز [٥٢] . غير أن الذي كان يعوزها هو العنصر البشري القادر والمدرب تدريبـاً رفيعاً من الناحية الفنية والعسكرية والقيادية . وتوفير العنصر البشري المطلوب ، من حيث القابلية والاعداد ، بالكميات الضرورية لا يمكن ان ينفصل عن البيئة التي نشأ فيها الفرد والمؤسسات التي كونت شخصيته والمؤثرات الاجتماعية التي أعطت لسلوكه طابعه وإيقاعه. وكلما كانت هذه العناصر المكونة للفرد متأثرة بمناهج العلم الحديث ومشبعة بعقليته ونظراته وقادرة على التطور استجابة لتقدمه كان إفراز العنصر البشري المطلوب أسهل وأغزر وأسرع . وعليه يتضح لنا مدى قصر النظر الذي

---

(٥٢) راجع محاضرة العميد الركن حسن مصطفى ، (الثقافة العربية ، بيروت ، كانون الاول ١٩٦٧)،ص ٣٦٦ .

أصيب به العرب حين أعدوا جيوشهم في العشرين سنة الماضية لمواجهة إسرائيل على أساس نوع معين من الحروب ولكنهم لم ينتبهوا الانتباه الكافي إلى نوعية المستوى التقني والعلمي الرفيع الذي تتطلبه البلاد بأجمعها لتتحمل عبء هذا النمط من الحروب في النصف الثاني من القرن العشرين. وينطبق هذا الاعتبار بصورة خاصه على عملية انتاج الكميات الكافية من العنصر البشري القادر والفعال على تسيير امور الحرب النظامية وانهائها بنجاح. أشار الرئيس عبد الناصر في خطاب له الى اهميه العنصر البشري الذي نحن بصدده. قال:

> ان الاتحاد السوفياتي تعاون معنا في هذا الموضوع الى أقصى ما يكون التعاون ولكن الموضوع مش هو السلاح، العنصر البشري هو العنصر الحاسم في تحقيق النصر.[٥٣]

ولم يتمكن العرب من انتاج هذا العنصر البشري الحاسم بعد لأسباب عديدة من أهمها ان التفاعل بين المجتمع العربي ومقومات الحضارة الصناعية الحديثة قد اقتصر في معظم الأحوال على الانتفاع بالتطبيقات العملية الناتجة عن الأبحاث والنظريات العلمية والاستفادة من ثمار العلم الحديث (والصناعة والتكنيك والاختراع)

---

(٥٣) **الأنوار**، ٣٠ نيسان، ١٩٦٨،

بدون الوصول الى جذوره أو تحقيق فهم جدي للقوى المحركة له أو المشاركة الفعالة في دفعه الى الأمام على نطـــاق واسع أو حتى التكيف الأصيل مع ما يفرضه من أفكار وقيم جديدة على المجتمع والفرد . ونحن لا نتجنى على الحقيقة . ان قلنا أن أقصى ما حدث في الوطن العربي بالنسبة لهذه المشكلة هو أننا أفسحنا مجالاً في حياتنا للثلاجة والتلفزيون وآبار البترول والميغ والرادار الخ ... وبقيت العقلية التي تستخدم هــذه المنجزات المستوردة هي العقلية التقليدية التي تنتمي إلى أطوار البداوة والزراعـــة والتعلق بالغيبيات أي إلى أطوار سابقة على مرحـــلة الثورة الصناعية والانقلاب العلمي في تاريخ الانسانية . وهذه ظاهرة غريبة وجديرة بالاهتمام لأن أمماً متخلفة أخرى غير الأمة العربية سلكت طريقاً أخرى في فـــترة قصيرة فلم تكتف بالاتصـال بمقومات الحضارة الحديثة ، وتعدت بسرعــه كبيرة مرحـــلة الانتفاع بثمار العلم واستيراد تطبيقاتــه العملية واستخدامهـــا بصورة ضحلة لتدخل بذلك نهضة صناعية وعلمية وتكنولوجية غيرت نسيج مجتمعها التقليدي تغييراً جذرياً ونسفت قيمـــه الرعوية وارتباطاته القبلية ومعتقداته الغيبية وعاداته القائمة على الزراعة البدائية ومدنه العائشة على الميركانتيلية المغامرة لتجعله قوة اقتصادية وعسكرية وحربية هامة في المجتمع الدولي .

وبعبارة أخرى لم يكن العدو الاسرائيلي مزوداً بأحدث الأعتدة الحربية والأجهزة المدمرة فحسب وبجميع المعونات الفعالة التي

وضعها العالم الرأسمالي في خدمته بل كان مزوداً أيضاً بعقلية وروحية معينة تتعاطف مع التكنيك الحديث وتفهمه حق الفهم وتعرف كيف تسخره لمصالحها إلى أقصى الحدود وكيف تستخرج منه مردوده الكامل وتستخدمه حتى أقصى إمكاناته. وليس باستطاعتنا أن نقول الشيء ذاته بالنسبة لموقفنا من الأسلحة الحديثة التي نملكها نحن أيضاً والتي تضاهي أسلحة العدو من حيث فعاليتها وقوتها الكامنة . فلا إيقاع الحياة في المجتمع العربي تغير بما فيه الكفاية ليكون منسجماً مع إيقاع الآلة المنتظم الذي لا يكل ولا يمل ! ولا تغيرت مفاهيمنا للوقت وللمكان وقياس المسافات والدقة في العمل والمهارة في استخدام الأجهزة المعقدة بما ينسجم مع حضارة القرن العشرين الآلية وثقافته العلمية والعلمانية . وأذكر هنا أن أحد قادة الفكر الديني في لبنان كتب في إحدى الصحف يطمئن العرب على مصير المعركة الحربية مع إسرائيل فقال ما معناه أن الملائكة التي نزلت في غزوة الخندق لتحارب إلى جانب النبي محمد وجماعته ستنزل إلى جانبنا اليوم وتؤمن لنا النصر في معركتنا مع العدو. قد يبتسم القارىء عند الاطلاع على هذا الكلام ولكن الحقيقة هي أن العقلية التي تتحكم بالانسان العربي عامة وبردود فعله ونظراته أقرب بدرجات إلى ما عبر عنه هذا العالم الديني مما هي الى العقلية والنفسية التي تعرف تماماً كيف تستفيد من الآلات المعقدة على أكمل وجه والى اقصى الحدود أو من الفرص التي تتيحها حرب التحرير للشعوب. كنا نعلم أن مهارتنا في استخدام

الطائرة والدبابة والصاروخ هي التي ستحسم نتيجة المعركة ولكن لسبب من الأسباب وجدنا أنفسنا مضطرين لأن نتفوه بمثل هذا الكلام الذي تفوه به هذا العالم الديني وأن نشرك الملائكة ، بالرغم من كل شيء ، في المعركة . وبعد ان انقضت الجولة الاولى من الحرب وعرفنا بالهزيمة التي منيت بها الأمة العربية قام ملك المغرب ليبررها ويفسرها فقال بأننا تحولنا عن الله فتحول الله عنا فكانت النكسة .

وبعد مضي عشرة شهور على الهزيمة دخلت مريم العذراء طرفاً في عملية تصفية آثار العدوان فظهرت في إحدى الكنائس في القاهرة حيث تمكن « أحد ستوديوهات التصوير في ضاحية الزيتون من تصوير السيدة العذراء أثناء ظهورها ليلاً ... ثم عرض الأنبا صموئيل الصورة على الصحفيين وأمام عدسات التلفزيون »[٥٤]. وقد ظهرت العذراء بالمناسبة « لشد ازر الشعب المصري المؤمن المبارك بنص الكتاب المقدس في الشدة أو الأزمة التي يمر بها الآن ... وكعلامة سماوية بأن الله معنا ولم يتركنا ... وإنه سيكون في نصرتنا وليشعر الكل بأن هذه الأزمة طارئة فقط وان السماء ما زالت في نصرتنا ... »[٥٥].

---

(٥٤) الاهرام ، ٥ ايار ، ١٩٦٨ .

(٥٥) المرجع السابق .

كما يدل هذا الظهور على أن «السيدة العذراء لا ترضى عما ارتكبه ويرتكبه اليهود في الأراضي المقدسة بمدينة القدس وان ما يقع هناك قد أحزنها وهي حامية الأراضي المقدسة فجاءت لتعلن للبشر غضبها وحزنها وتدعو لتخليص القدس من مغتصبيها»[٥٦].

٣) من أخطر الأمور التي تسترعي الانتباه بالنسبة لأوضاع الوطن العربي الراهنة وخاصة حول نواحي التخلف التي لحظناها انعدام المؤسسات العلمية المنتجة والمعاهد الفنيـة "تكنيكية" المزدهرة وضعف جامعاتنا الوطنية من حيث المشاركة الفعلية في البحث العلمي وتطبيقاته في جميع المجالات الستراتيجية منها وغير الستراتيجية . ان أول ما أسس اليهود في فلسطين كان الجامعة العبرية وبعد أن قامت دولة إسرائيل ازدهر معهد وايزمان للأبحاث العلمية الذي يضم نخبة ممتازة من العلماء في الفيزياء النووية والذرة والكيمياء والرياضيات الخ . ناهيك عن المعاهد الفنية والمهنية والصناعية الأخرى المنتشرة فيها . وبالقياس إلى هذه الاوضاع السائدة عند العدو الاسرائيلي ماذا نجد في وطننا العربي ؟ من المحيط إلى الخليج التزمت دولة عربية

---

(٥٦) المرجع السابق ، راجع دراستي المفصلة لمسألة المعجزة المنشورة تحت عنوان «معجـزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان »،«دراسات عربية » ،تموز ١٩٦٨ .

واحدة فقط بخطة منتظمة في الانفاق على البحث العلمي وهي الجمهورية العربية المتحدة . الوطن العربي ببتروله وملايينه المئة لا يحوي على معهد واحد يمنح شهادة ليسانس أو بكالوريوس في علم الالكترونيات علماً بأن طائرة الميغ مليئة بالمعدات الالكترونية وان جميع شبكات الرادار قائمة على هذه المعدات . كما أن القدرة على استخدام هذه الأجهزة المعقدة لا تنحصر في مجال تسييرها في الظروف السوية والأوقات الاعتيادية وإنما تتعدى ذلك إلى المهارة في استخدامها في الأوقات الحرجة وقراءتها قراءة صحيحة بالرغم عن التشويش الذي ينصب عليها من أجهزة العدو وهذه المهارة تأتي نتيجة « فطنة ميكانيكية » يفترض في المعاهد التقنية ان تربيها في الفنيين والخبراء ليواجهوا بها هذه الأحوال الطارئة ويستخلصوا من الأجهزة أقصى حد ممكن من الفائدة بالرغم عن العقبات التي تواجههم . ولا يمكن لمثل هذه الفطنة وما تقوم عليه من مهارات فنية أن تكتسب بعمق عن طريق الدورات التدريبية على استعمال أجهزة معقدة ما لم يتمتع الفرد المعني بثقافة علمية أساسية وتدريب تقني أولي يفترض بالمعاهد الفنية والجامعات أن تقدمه لطلابها .

بين الدكتور وصفي حجاب في دراسة له عن الفكر العلمي العربي الحديث [٥٧] انه عند مراجعته لإحدى المجلات العلمية

---

(٥٧) « الفكر العربي في مائة سنة » ، منشورات العيد المئوي ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٦٠٤ - ٦٢٨ .

التلخيصية العالمية (Science Citation Index) التي تنشر نبذة قصيرة عن كل بحث علمي يظهر في المجلات الاختصاصية في جميع أنحاء العالم وجد انه من أصل ١٥٠٠ مجلة علمية مشار اليها في المجلة التلخيصية لا يوجد إلا مجلة عربية واحدة هي « مجلة الجمهورية العربية المتحدة للكيمياء » كما بين الدكتور حجاب في الدراسة نفسها أن العلماء العرب نشروا في المجلات العلمية العالمية ما يقرب من الف بحث علمي عام ١٩٦٥ كانت تسعة أعشارها صادرة عن الجمهورية العربية المتحدة وكان القسم الاكبر من العشر الباقي صادراً عن علماء في الجامعة الأميركية في بيروت أما ما تبقى من أرجاء الوطن العربي الشاسعة فهو من ناحية الانتاج العلمي صحراء قاحلة مجدبة بكل معنى الكلمة . ويعلق الدكتور حجاب على هذه الوقائع بقوله : « فإذا أخذنا بعين الإعتبار ان سكان البلاد العربية هم في حدود ٣ بالمئة من سكان العالم وان الانتاج العلمي في سنه ١٩٦٥ هو في حدود المليون ورقة علمية ، نستنتج ان العالم العربي ساهم فقط بمقدار ٣ بالمئة من نصيبه حسب التناسب السكاني . »

لا شك ان الأمة العربية وقادتها مدعوون اليوم قبل الغد لإنشاء معهد عربي للدراسات الاستراتيجية ومعهد عربي للدراسات الالكترونية ومعهد آخر للعلوم الطبيعية ومعهد للدراسات البتروكيميائية والى إعادة النظر بصورة شاملة سريعة في برامج العلوم الطبيعية والرياضيات المقررة والتنظيمات المؤتمنة على تنفيذها ويفترض

في هذه المعاهد أن تجمع شمل هذا العدد الكبير من العلماء العرب الشباب العاملين اليوم في مختلف الجامعات والمعاهد العلمية خارج الوطن العربي في اوروبا والولايات المتحدة على وجه التخصيص . الأمة العربية ليست عاجزة عن إنشاء وتمويل عدد من المعاهد العلمية على مستوى رفيع من التجهيز تجمع فيها شتات علمائنا الذين نزحوا الى خارج الوطن العربي أو لم يعودوا اليه بعد انتهائهم من الدراسة بسبب الأوضاع الرديئة السائدة في جامعاتنا الوطنية من الناحية العلمية والتنظيمية والادارية . وكل من صارع هذه الأوضاع يعرف أنها لا تساعد العالم الناشىء على البحث أو الانتاج ولا تهيىء له الأجواء المطلوبة للاستمرار في العمل العلمي المنتج بل على العكس من ذلك انها تحاول امتصاص مبادهته الفكرية وطموحه العلمي باسم الروتين والأنظمة التي تعود إلى عهود ماضية عفا عليها الزمن ولم تطلها يد الاصلاح والتغيير لتجعلها مناسبة لمتطلبات البحث العلمي في النصف الثاني من القرن العشرين . أضف إلى ذلك أن كثيراً ما يكون المسؤولين عن الأقسام العلمية في الجامعات الوطنية أساتذة لهم مكانة في الجامعة بسبب سنهم أو مدة خدمتهم أو بسبب انجازات علمية قاموا بها منذ سنين طويلة خلفهم بعدها موكب العلم وراءه فأصبحوا عاجزين عن متابعة التطورات الجديدة التي تجري كل ساعة في حقول اختصاصهم . وكلنا يعلم ان جامعاتنا الوطنية هي في الحقيقة مؤسسات لامتحان الطلاب في نهاية العام الدراسي وليست مؤسسات لحفظ المعرفة الانسانية ونقلها

وتجديـــدها وتطويرها وتخطيها ووضعها في خدمة الأمـــة والشعب .

فإن كانت إسرائيل قادرة على تجميع العلماء اليهود (وغير اليهود) في معاهدها العلمية التي تسهم بصورة مباشرة في جميع أوجه حياتها هل تكون الأمة العربية عاجزة عن أن تجمع شتات العلماء العرب في معاهد مماثلة تتيح لهم خدمة العلم والأمة والشعب ونهضته المستمرة وتربية أجيال جديدة من العلماء العرب الأكفاء؟ وأمامنا أمثلة أخرى عديدة : ١) بعد تأسيس الجمهورية الشعبية في الصين بشهر واحد فقط (١٩٤٩) قامت الحكومة الجديدة بتأسيس الأكاديمية الصينية للعلوم ثم وجهت نداء للعلماء الصينيين العاملين في الجامعات الأجنبية لينضموا إلى جامعاتها ومعاهدها ولبى عدد كبير منهم النداء وعادوا إلى وطنهم ليشكلوا النواة التي لا تزال الصين تبني حولها نهضتها العلمية الحديثة مصدر قوتها المتزايدة داخلياً ودولياً ، وأبرز ما فيها الانتصارات التي حققتها في الأبحاث النووية وتم ذلك في مدة قصيرة من الزمن وبدون أية مساعدة خارجية تذكر . تمكن العلماء الصينيون من تفجير قنبلتهم الهيدروجينية وسبقوا فرنسا في هذا المضمار بالرغم من ان فرنسا تعتبر من كبريات الدول الصناعية في العالم وفيها تقاليد علمية راسخة وقديمة .

٢) عبر ستالين في عام ١٩٣١ عن نوعية الجهود الجبارة التي

تبذلها الحكومة السوفياتية للتغلب على التخلف الاقتصادي والعلمي والعسكري والسياسي الذي كانت روسيا غارقة فيه، بالكلمات التالية مخاطباً علماء بلاده : « تاريخ روسيا هو تاريخ الهزائم المستمرة بسبب التخلف ... وعلينا أن نقطع، بمدة أقصاها عشر سنوات، المسافة التي تفصلنا عن البلاد الرأسمالية المتقدمة .. ولذلك ينبغي أن تدرسوا كل شيء والا تدعوا أمراً يفوتكم، وان تزدادوا علماً يوماً بعد يوم ... علينا أن ندرس التكنولوجيا وان نتمكن من العلم تمكناً تاماً الخ ... » ولا شك أن سياسة الاتحاد السوفياتي العلمية أعطت مردودها الكامل في فترة قصيرة جداً نسبياً إذا أخذنا بعين الاعتبار الدمار الذي خلفه الغزو النازي . وفي سنة ١٩٥٧ ذكرت مجلة تايم الأميركية في معرض نقدها لبعض نواحي الحياة العلمية في الولايات المتحدة بأن عدد المهندسين الذين تخرجهم جامعات الاتحاد السوفياتي ومعاهده بلغ ضعف عدد المهندسين الذين يتخرجون من معاهد الولايات المتحدة في العام الواحد، كما بينت المجلة أن الحكومة السوفياتية تغدق المال بدون حساب تقريباً على تطوير البحث العلمي النظري والتطبيقي باعتباره الشرط الضروري لنمو البلاد الاقتصادي ولقوتها الحربية والسياسية ومكانتها الدولية [٥٨] . ينبغي علينا إدراك أهمية هذه الحقائق ومغزى هذه التجارب التي مرت بها أمم أخرى

---

(٥٨) «مجلة تايم» ، ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٧ ، ص ٧ .

بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا تجاه إسرائيل وتجاه حضارة هـــذا القرن .

٣) جميعنا يذكر حالة شبه الذعر التي اجتـاحت الولايات المتحدة في شتاء عام ١٩٥٧ بعد ان نجح الاتحاد السوفيـــاتي في وضع اول جرم صناعي في الفضاء . ارتبكت الاوساط العلمية الاميركية في ذلك الشتاء واعتبرت الانتصار السوفياتي من ناحية وفشل المحاولات الاميركية الاولى لوضع جرم مماثل في الفضــاء من ناحية ثانية نكسة مهمة لاميركا ذات مغاز عسكرية ودولية خطيرة . غير أن الامر الذي يهمنا في الموضوع هو كيف كان رد الفعل الاميركي للنكسة وماذا فعل الاميركيون للتغلب عليها وتصفية آثارها ؟ اول ما قام به اهل الاختصاص في اميركا هو اعادة النظر في برامجهم التعليمية على جميع المستويات (ابتـداء بالمدارس الابتدائية حتى اضخم مختبرات الابحـــاث النووية) لتحديد مواطن الضعف فيها وتقويتها وتبديلها لتنسجم مــع المرحلة الحاضرة من متطلبـات التحدي التكنولوجي والعلمي والعسكري الذي اخذت تواجهه البلاد . وعلى سبيل المثال اورد هنا النقد الذي وجهه احد الاخصائيين الكبار في التربيـــة إلى برامج التعليم الثانوية في اميركا امام جمع غفير من العلماء الاميركيين المجتمعين لهذا الغرض . قال هذا العالم : « لقـــد اصبحت برامج الرياضيات التي تدرس في معاهدنا الثانوية متخلفة عن الركب اذ تسيطر عليها مفاهيم الرياضيات والفيزياء التي كانت سائـدة في

القرن التاسع عشر كما انها لم تعد تحقق اي نجاح في ربط المعلومات التي تدرسها بعلم الرياضيات كوحدة متكاملة ..»[٥٩] وحذر العالم الذري المشهور ادوارد تيلر (وهو صانع اول قنبلة هيدروجينية في العالم) الاميركيين من مغبة الاستخفاف بالبحث العلمي في التغلب على النكسة بقوله : « ينظر الروس الى العلم كما لو كان ديناً لهم وينظرون الى علمائهم باقصى درجات الاحترام . » ثم اضاف ان العلماء والمعلمين في الولايات المتحدة لا زالو يتقاضون اجوراً منخفضة نسبياً ولا يتمتعون بالمكانة التي تناسبهم في المجتمع الاميركي بالقياس الى خطورة مسؤولياتهم وما يقومون به من أعمال . كما شدد على ان الحوافز التي تعمل على جذب الشبان والشابات على دخول الحقول العلمية البحت والتفرغ لها ليست كافية في وضعها الحاضر الخ ... [٦٠] وكانت النتيجة التي توصل اليها المسؤولون في الولايات المتحدة بعد النقد الذاتي والتمحيص الدقيق هي أن التغلب على النكسة يتطلب خطوتين اساسيتين : ١) تعزيز البحث العلمي والنظري والتطبيقي في البلاد ودفعه الى الامام بسرعة وخاصة في المجالات الحيوية التي تخلفت فيها اميركا وراء الاتحاد السوفياتي . ٢) اصلاح برامج العلوم في المدارس الثانوية وتعزيزها وتجديدها بما يتفق مع الاهداف الوطنية للنمو على جميع المستويات في حياة البلاد [٦١] . ولتحقيق الخطوة الثانية

(٥٩) المرجع السابق ١١ تشرين الثاني ١٩٥٧، ص ٥٠ .
(٦٠) المرجع السابق، ١٦ تشرين الاول ١٩٥٧ ، ص ١٦ .
(٦١) المرجع السابق، ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٧، ص ١٩.

قام الخبراء بدراسات عديدة حول المعاهد الثانوية كانت اشهرها دراسة الدكتور جيمس ب. كونانت ، وهو عالم كبير ومعروف ورئيس سابق لجامعة هارفرد ، وقد قيم فيها المدارس الثانوية الاميركية واظهر مواطن الضعف فيها وقدم اقتراحات عديدة واساسية حول رفع مستواها العلمي والثقافي لتقوم بواجبها على اكمل وجه بما يتناسب مع التحدي الذي كانت تواجهه الولايات المتحدة . والعبرة في هذا الكلام بالنسبة للعرب هي ضرورة الرد على التحدي بصورة خلاقة تعالج موطن الداء الحقيقي . والتحدي الذي تواجهه الامة العربية اليوم هو الهزيمة التي الحقها بها العدو المحصن بقوة العلم الحديث ومنجزاته واختراعاته وعقليته التقنية ونفسيته المتعاطفة مع الآلة، وينبغي على الامة العربية أن تبدأ مباشرة بتطوير الاجهزة والمؤسسات الفعالة التي يمكنها أن تشق الطريق امامنا نحو مستوى ارفع من التجهيز العلمي لمواجهة اعدائنا مواجهة فعالة في المستقبل القريب والبعيد .

٤) من المسلم به ان عملية مراجعة البرامج التعليمية واعادة النظر باوضاعنا العلمية لنتمكن من اعداد العلماء الاكفاء ليس بالامر البسيط الذي يمكن اتمامه في فترة وجيزة . ولذلك اقترحت في الصفحات السابقة الاعتماد مباشرة على العلماء العرب العاملين في خارج الوطن العربي . واريد ان الفت النظر بهذا الصدد الى وسيلة سريعة نسبياً ،اعتمدتها عدة دول بغية الاسراع

في اعداد العلماء والاختصاصيين والفنيين الذين تحتاج اليهم البلاد وكان الاتحاد السوفياتي من رواد هذه التجربة : من التقاليد الروسية القديمة والتي لا تزال قائمة تخصيص معاهد خاصة للاطفال ذوي المواهب الفنية الفذة مثل الموسيقى والرقص (الباليه) وغيرها من الفنون الجميلة لتتعهدهم برعاية خاصة على اساس مناهج تعد لهم خصيصاً لا يمكن تطبيقهـــا في المدارس العادية . طبقت حكومة الاتحاد السوفياتي هذا التقليـد على الطلاب والطالبات ذوي المواهب الفائقة في الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية وذلك على صورة مناهج يتم تدريسها في المرحلة الثانوية العادية بغية الحصول على اكبر عدد ممكن من العلماء المبدعين باقصر فترة ممكنة وبدون اضاعة وقت هؤلاء النوابغ الصغار في الروتين المدرسي العادي . ويتضمن المنهاج الخاص في الرياضيات مثلا موضوعات لا تدرس ، في الاحوال العادية ، إلا على المستوى الجامعي مثل الهندسة التحليلية والميكانيكا النظرية وتطبيق الرياضيات في الفيزياء وحساب التفاضل الخ ... ولذلك نجد ان الجامعات هي التي تشرف على وضع هذه البرامج الخاصة وتطبيقها . وفي عام ١٩٥٨ اقترح الرئيس خروشوف على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تحويل هذه البرامج الخاصة بالنوابغ إلى مدارس مستقلة تماماً وقال في مذكرته حول هذا الموضوع : « ينبغي انشاء مدارس خاصة للطلاب الموهوبين في الفيزياء والرياضيات والتصميم الصناعي وعلوم الاحياء الخ ...

بغية إعدادهم لمتابعة دراساتهم العالية وفقاً لمواهبهم الخاصة»[٦٢] .
وقد اقترح جيمس كونانت في كتابه المشار اليه آنفاً اعتماد مناهج مماثلة في المدارس الثانوية الاميركية [٦٣] .

لا شك ان تركيز الجهود على اعداد عدد من العلماء العرب الاكفاء بهذه الوسائل السريعة التي برهنت على نجاحها التام جدير بانتباه القادة العرب واهتمامهم . في الواقع بلغت هذه الوسائل درجة من النجاح في الاتحاد السوفياتي جعلت السيد لويس شتراوس رئيس لجنة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة في عام ١٩٥٧ يحذر الاميركيين بقوله : « اني لا اعرف معهداً ثانوياً واحداً في بلادنا يستطيع اعداد الطالب في العلوم والرياضيات إعداداً يشبه برفعته ومتانته الاعداد الذي يتلقاه الطالب في المدارس الثانوية السوفياتية . وهذه الحقيقة قائمة عندنا حتى لو كان الطالب المعني يتمتع بمواهب اينشتين نفسه ويبحث عن معهد ليعده على الوجه المطلوب » [٦٤] .
لو قارن العرب انفسهم مع اسرائيل على هذا الصعيد لانطبق

---

(٦٢) N. Dewitt, **Education and Professional Epmloyment in the USSR.** ص ١٨ ، ١٩ ،
(٦٣) JamesB. Conant ,**The American Highschool** ، ص ٥٧ ، ٦٢
(٦٤) « مجلة تايم » ، تشرين الثاني ١٩٥٧ ص ٢٠ .

كلام شتراوس على مدارسنا واوضاعنا العلمية انطباقاً تاماً .

وخلاصة القول هو ان قوى الثورة في الوطن العربي وخاصة في الاقطار العربية التقدمية مدعوة الآن اكثر من أي يوم مضى الى العمل على ادخال الامة العربية إلى حظيرة القرن العشرين بعلمه وتخطيطه وصناعته واقتصاده وتكنيكه بتبنيها تبنيـــاً حاسماً وقاطعاً العلم الحديث والتكنولوجيا واعطائها الافضلية والاولية في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقـــافي وهي مدعوة إلى دعم مجرى التغيرات الاساسية المفروضة على المجتمع العربي التقليدي انسجاماً مع ما تتطلبه الثورة الصناعيـــة والعلمية وتمشياً مع ما يفرضه الانقلاب الاجتماعي والاشتراكي والثقافي المنشود .

VI

في خطاب القاه الرئيس عبد النـاصر في اوساط العمال في الجمهورية العربية المتحدة قال :

> وحينما نتكلم عن الوطنية العربية أو القومية العربية يجب ان ننسى في هذه المرحلة مفاهيم اخرى كثيرة . الوطني اليميني كالوطني اليساري . لأن اسرائيل حينما احتلت الضفة الغربية للاردن لم تفرق بين الوطني اليميني وبين الوطني اليساري

طالما كان كل منها وطنياً (٦٥) .

جلي ان هذا الكلام يشكل اعترافاً بالعجز الذي وقعت فيه حركة الثوره العربية الاشتراكية كما تتمثل على مستوى الانظمة الحاكمة بقواها واتجاهاتها وسياساتها . أقول هذا ليس على طريقة النقد اليميني الرجعي الذي يتذرع بالهزيمة ليرفض الثورة الاشتراكية أصلا ، هذه الثورة الجذرية التي يتحتم على المجتمع العربي ان يحققها ان هو اراد الصمود والاستمرار والتقدم في هذا العصر . وعلى الرغم من جميع الانجازات التي حققتها حركة الثورة العربية الاشتراكية على صعيد التحرر الاقتصادي (في بعض الاقطار العربية) والتخلص من التبعية السياسية التقليدية ومحاربة الاستعمار الخ ... لقد بينت هزيمة حزيران أن الثورة العربية الاشتراكية لم تكن ثورية بما فيه الكفاية ولا اشتراكية بما فيه الكفاية عند قياسها بالمعايير الصارمة التي تفرضها الهزيمة لا بالمعايير النسبية ، أي بالقياس الى ما كانت عليه الاوضاع العربية قبل قيام الثورة . ولو كان واقع الامور غير ما قلناه لما اضطر الرئيس عبد الناصر لأن يلغي التمييز بين اليمين واليسار في خطاب يلقيه امام جموع من العمال العرب ويميّع فيه الفوارق الحادة بين الاتجاهين ، هذه الفوارق القائمة على المحتوى الاشتراكي العلمي والاجتماعي لفكرة القومية العربية ، علماً

(٦٥) الاهرام ١٦ نيسان ، ١٩٦٨ .

ابأن الفضل الاول في اعطاء فكرة الوطنية العربية بعض ابعادها لاجتماعية والاشتراكية على صعيد الانجاز العــملي يعود إلى الحركة التقدمية العربية التي قادها ولا يزال يقودها هو بنفسه. كان يفترض في الثورة العربية بعد ١٥ سنة أن تجد سندهـــا ومرتكزها– في ساعات المحنة والازمات–في محتواها الإجتماعي الثوري ومميزاتها الاشتراكية وحدهـــا لا في العودة إلى مفهوم للقومية العربية يتساوى فيه الموقف اليميني الرجعــي بالموقف اليساري الاشتراكي العلمي . في الواقع ان هذا التساوي غير وارد أصلا لأن الغاء التمييز بين اليسار واليمين على صعيد الوطنية العربية جاء لصالح اليمين كلياً ولم يأت باعتباره نوعاً مـــن التسامح الحـــالي من قبل حركة الثورة العربية ازاء اليمين والرجعية التي يمثلها بسبب الظروف الحاضرة . اليمين العربي موجود بكثرة ولا خوف عليه حالياً وهو مرتاح وفي بحبوحة تتمتع بها الرجعية العربية ومن هم وراءها من قوى الاستعمار الجديد . وبمقابل هذا الوضع الملائم لليمين العربي يأتي الالغاء الذي اشار اليه الرئيس عبد الناصر ليبين عـــدم وجود يسار عربي اشتراكي حقيقي قادر على قيادة الامة العربية في محنتها الحاضرة بالرغم عن كل ما قيل للبرهنة على عكس ذلك قبل الهزيمة وبعدها . كلام الرئيس عبد الناصر الذي نحن بصدده لا يعني ان حركة الثورة العربية الاشتراكية هي التي ستتحمـــل اليمـــين العربي في هذه المرحلة بغية تعبئة الطاقات كافة تحت قيادتها ولوائها وانما يعني بأن المطلوب من اليمين نفسه أن يتحمل

الحركة الثورية في الازمة الحاضرة والايزيد من شقائها وبؤسها، وكل هذا واضح من موقف السعودية والكويت مثلا من فكرة إنشاء قيادة عسكرية موحدة لجيوش الدول العربية المتاخمة للأرض المحتلة . لخصت جريدة الحياة هذا الموقف كما يلي :

وعلم من مصادر مطلعة مقربة من الوفدين السعودي والكويتي أن العاهلين لا يمانعان في إقامة هذه القيادة شرط أن يتغير الاتجاه السياسي في بعض الدول العربية مما يضمن تحررها من المبادىء المستوردة (٦٦) .

أي بعبارة اخرى بما يضمن تنازلها عن اشتراكيتها وثوريتها . كما اوردت الصحيفة نفسها خبراً يثبت ذات الحقيقة ويشير في نفس الاتجاه :

الملك فيصل والأمير صباح يشعران بأن السياسة التي ادت إلى النكبة الأخيرة ما زالت قائمة وتسير في نفس الخط الذي كانت تسير عليه قبل الخامس من حزيران ، وان من شأن هذه السياسة فيما لو استمرت ان تزيد من التدخل والنفوذ السوفياتي بالاضافة إلى انها تهيء

(٦٦) الحياة ٩ نيسان ، ١٩٦٨ .

الأسباب لمزيد من الوجود والنفوذ السوفياتي
في المنطقة [٦٧].

مثال آخر : بمناسبة دفع ليبيا للقسط الثالث من التزاماتها المالية تجاه الجمهورية العربية المتحدة والاردن اثارت الصحيفة الليبية شبه الرسمية الحقيقة موضوع المساعدات التي اقرها مؤتمر القمة العربي بعد الحرب وذكّرت المستفيد الأكبر من هذه الأموال

بأن ما تدفعه ليبيا ليس فائضاً عن الحاجة لكنه
قطعة من رغيف الخبز وجزء من المال الذي
خصص لفتح الطريق وبناء المستشفى
والمدرسة

ثم شدّدت الصحيفة على انه « يجب ان يكون لليبيا رأي في إنفاق اموالها ... » [٦٨]

وبما اننا في معرض النقد الذاتي سأذكر بعض السلبيات الفاعلة في بنيان ما اصطلحنا على تسميته بالخط الثوري العربي الاشتراكي لأنها مسؤولة إلى حد كبير عن الضعف الذي اتصف به والتفكك الذي تجلى فيه حين اختبر على المحك ووضع موضع

---

(٦٧) **الحياة**، ١١ نيسان، ١٩٦٨.

(٦٨) **النهار**، ١٩ أيار، ١٩٦٨.

التجربة القاسية الصارمة التي لا ترحم .

١) كثر الكلام في صفوف اليسار العربي قبل المعركة وبعدها حول قيام « فيتنـــام عربية » وحول علاقة الثورة العربيـــة بالثورات الاشتراكية الكبرى (الاتحـــاد السوفياتي والصين) وموقف الأخيرة من امريكا والاستعمار الجديد . وينبغي علينا في هذا الظرف ان نصارح انفسنا ان عقد المقارنات والتشبيهات بين الثورة العربية على حالها وبين الثورات الاشتراكية الكبرى والفيتنام فيه الكثير من الاجحاف والتجني على تلك الثورات التي نقرن أنفسنا بها وبمنجزاتها الضخمة . وقد يعتبر البعض هذا الحكم قاسياً ، ولكن من منا لا يفضل اليوم القسوة على النفس بدل التهاون والتراخي ؟ وفي معرض كلام البعض عـن تناطح الرأس العربي الثوري بالرأس الأميركي الاستعماري قامت موازنات ومفاضلات بين مواقف الاتحاد السوفياتي والصين من جهة وبـين الموقف العربي الثوري من جهة أخرى نحو أمريكا والاستعمار الجديد لينتهي الكلام عند بهلوانيات مصارعي الثيران كتكتيك لتدويخ الرأس الأميركي [٦٩] . وبغض النظر عن فضائل هـــذا التكتيك المقترح ورذائله يبـــدو لي أن هذه المفاضلات بـــين طبيعة القوى الثورية العربية في ما آلت إليه وبين مواقف الدول الاشتراكية الكبرى بما فيها الفيتنام فيه تطاول من قبلنا ، إذ

---

(٦٩) راجع مقال هيكل في **الأهرام** ، ٤آب ١٩٦٧ .

أننا في وقت نحن أحوج ما نكون فيه لأخذ العبرة ممن سبقونا على طريق النضال الاشتراكي ان كان على الجبهات الداخلية أو الخارجية والتعلم من خبراتهم عن كيفية السير بحزم على الخط الاشتراكي في الأيام الصعاب ، والاستفادة الكلية من تجاربهم العلمية والعملية المؤكدة ومن تراثهم النضالي والفكري والعلمي . ينبغي علينا أن ندرك هذه الحقائق خشية خداع النفس والتمويه عليها على طريقة الشخصية الفهلوية التي تدعي الاعتماد على قدرات وطاقات وإنجازات وهمية لا وجود لها في الواقع الحقيقي .

٢) بخلاف الثورات الاشتراكية الأخرى لم تعلن الثورة العربية بعد ، بصورة صريحة ورسمية وواضحة ، عن علمية اشتراكيتها وعلمانيتها ولا يزال التردد يسود أوساطها حول هذا الموضوع . كما ان القوى الثورية العربية لم تدرك عمق الارتباط بين الاشتراكية والعلم الحديث ، وان تمييز الاشتراكية المنشودة عن غيرها من الأفكار الاشتراكية بوصفها « بالاشتراكية العلمية » لم يكن عبثاً وسدى وإنما كان من أغراضه الاشارة إلى تلازمها الدائم والمستمر . كما ان الثورة العربية لا تزال مترددة حول أمور جوهرية عديدة بالقياس للثورات الاشتراكية التي نقارن أنفسنا بها : هل تريد الثورة العربية مجرد تحقيق إصلاح زراعي يفتت الملكية بتوزيعها على الأفراد أم تريد ثورة زراعية تُصنّع الزراعة وتنظم الأرض وفقاً لطبيعة الانتاج ووفقاً لأسس علمية مدروسة ؟ هل تريد الثورة العربية تحقيق إصلاح

عقاري أم تريد الثورة القضاء على فكرة الملكية الفردية لكل ما ينتج الثروة ويؤدي للاستغلال ؟ هل تريد الثورة العربية مجرد نقل وسائل الانتاج ومصادر الثروة في البلاد الى ملكية القطاع العام أم تريد بالاضافة الى ذلك تحقيق ثورة على وسائل وأساليب الانتاج والتوزيع وعلى العلاقات الاجتماعية والطبقية المرتبطة بها والمعبرة عنها ؟ هل تريد الثورة العربية أن تبقى حياة الانسان في المجتمع العربي خاضعة لشرائع انحدرت الينا منذ أربعة عشر قرناً وقوانين ورثناها من التشريعات النابوليونية في فرنسا وقضاء بورجوازياً يتلاءم معها ، أم هي تريد ثورة على هذه الأوضاع السائدة لتستبدلها بنظام تشريعي عصري مستمد من الفكر الاشتراكي العلمي وعناصره ؟ هل تريد الثورة العربية مجرد إصلاح أنظمتنا التعليمية (على جميع مستوياتها) المؤلفة من مزيج غريب من أفكار وأساليب تربوية تقليدية عتيقة ومما استوردناه من المناهج التعليمية من الجمهورية الفرنسية الثالثة مثلاً ، أم هي تريد ثورة جذرية عليها توجهها في طريق التقدم المطرد لتصبح جديرة بمجتمع اشتراكي يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ؟ الثورة العربية ، كما عرفناها بأطوارها المختلفة ، لم تجب على هذه الاسئلة بوضوح بعد ، وخاصة على مستوى التنفيذ الفعلي ، ولم تتخذ إلا جزءاً من الخطوات الفعلية والاجراءات العملية الواضحة لحسم هذه الاسئلة في صالح الحلول الثورية . وليس باستطاعتنا أن نقول الشيء ذاته بالنسبة للثورات الاشتراكية الأخرى التي نقارن أنفسنا بها لأنها أجابت

بأجوبة ثورية على هذه الاسئلة منذ البداية واتخـــذت الخطوات العملية الكفيلة بترجمتها الى مستوى الواقع الاجتماعي والاقتصادي في غضون أقل من خمس سنوات من يوم مولدها . والهزيمة تحـتم على الثورة العربية الخروج من دوامـــة « الوسطية » في الفكر والتخطيط والتنفيذ حـتى لا يتمكن منهـــا الاستعمار بصورة نهائية . ولنذكر هنا أن الاستعمار لم يتمكن في يوم من الايام من استئصال أية ثورة اشتراكية راسخة وواضحـة في فكرهـــا وتطبيقها ، مع انـــه حاول جهده ليقضي على ثورة أوكتوبر وتكالب على الثورة الصينية (وزرع شبه اسرائيل في فورموزا) وعلى الثورات في كوريا وكوبا وفيتنام ولم تكن النتائج لصالحه على الاطلاق . اما الحركات التحررية فيما كان يدعى قبـــل ٥ حزيران بالعالم الثالث فقد تقاعست في مسيرتها الثورية نحـــو الاشتراكية ولم تتعد مرحلة « عـدم الانحياز » و « الحيـــاد الايجابي » فوقعت لقمة سائغة لقوى الاستعمار الجديد، فارتبطت الهند بالمعسكر الرأسمـالي بصورة واضحة ، وبعـــد سقوط سوكارنو ونكروما وغيرهما ها هي جيوش الاحتلال الاسرائيلي جاثمة على ارضنا العربية . أي أن مجتمعات الأقطار العربيـة التي تهيمن عليها قوى تعتبر نفسها ثورية ويسارية لا تزال قائمة في جوهرها على الأسس القديمة التي نريد للتحويـل الاشتراكي والصناعي والعلمي ان ينسفهـــا جملة وتفصيلا . ونكرر مرة أخرى بأن هذه الأسس لا تزال قائمة في الواقع — وبالرغم عن أنف كل ما قاله العرب عن الثورية ، ان كان ذاـــك بالنسبة

للتشريع أو نظـــام التعليم أو تنظيم الزراعـــة الفردي أو البيروقراطية الادارية أو قوانين الاحوال الشخصية أو الولاءات العشائرية والارتباطات القبلية التي لا زالت تحدد جزءاً كبيراً من علاقات الانسان بغيره من الناس والمؤسسات في المجتمع العربي. كل ذلك لا يزال قائماً في ظل الانظمة التقدميـة نفسهـا وتحت سمعها وبصرها .

من عواقب هذا النقص في الوضوح الايديولوجي الذي يسيطر على الحركة الاشتراكية العربية ويأرجحها في الوسطيـة الجدل العقيم حول ما اذا كانت الاشتراكيـــة التي يفترض في القوى الثورية العربية أن تنادي بها هي : « اشتراكية عربيـــة » أو « تطبيق عربي للاشتراكية » وحول ما إذا كانت اشتراكيتنا علمية أو مؤمنة أو مستوردة أو رشيدة أو حكيمة أو مسلمة إلى غير ذلك من هذه البلبلة الفكرية والسفسطة الكلاميـــة التي تنعكس آثارها على مستوى النظرية والتطبيق في آن واحد . هذا الجدل العقيم لا يمت بصلة إلى أية محاولات جـدية ومهمـة لتحديد هوية اليسار العربي . انه في الواقع لا يتمدى كونـــه محاولات هزيلة للتمسح بكلمة الاشتراكية ، بسبب ما اصبح لها من معان ايجابية واصداء حسنة لدى الجماهير العربية ، بغية تورية مواقف واجراءات وسياسات لا تمت إلى الاشتراكية العلميـــة بصلة . ان المقالات التي تكتب عن تمييزات لفظية تدور حول التفرقة بين « اشتراكية عربية » و « تطبيق عربي للاشتراكية »

ليست إلا الاعيب نتلهى بها عن الموضوع الرئيسي الذي يجب أن ينصب عليه اهتمامنا الفكري والعلمي وهو الاشتراكيـة العلمية بذاتها . هذا اذا لم نقل بأنها الاعيب تهدف إلى تزييف الموضوع وتمييع المحاولات الجادة لفهمه وفهم دور اليسار العربي بالنسبة اليه . أضفى الكاتب اللبناني الدكتور حسن صعب لباس الشرعية الفلسفية والتاريخية والحضارية على موقف الوسطيـة الذي طبع (ولا يزال يطبع) حركات التحرر العربيـة عامة والانظمة التقدمية على وجه التحديد بقوله :

ان لهذه الامثلة والنماذج والتجارب التقدمية (خارج الوطن العربي) ما تتفق فيه وما تختلف فيه. وقد تعودنا ان نقول باننا نريد للاسلام ان يتوسط بينهما ، لان الله جعلنا امة وسطا « لنكون شهداء على الناس . » ولأن الرسول علمنا ان خير الامور الوسط ، ولأن موقعنا الجغرافي متوسط ، ولأن تجربتنا الحضارية تجربة توسط ما بين الشرق والغرب ، أو ما بين شرقي آسيا وغربي اوروبا ، أو ما بين العقلانية اليونانية الغربية وما بين الحلولية الشرقية الاسيوية . وقد آن لنا ان نؤكد على التوسط الخلاق لا التوسط المقلد او الملفق اذا شئنا ان نصون

حريتنا وعبقريتنا واصالتنا وطرافتنا [٧٠].

والحق يقـال بأن الاستنتاج الوحيد الذي اتوصل اليه من تسويغ الدكتور صعب للوسطية هو أننا جماعة لا موقف لنا ولا أصالة في نهاية المطاف ، وليس عندنا ما نقدمه الا التوسط بين الاصالات الاخرى التي لم نكن مسؤولين عنها ، وبين المواقف الجذرية التي تقف عندها الشعوب والامم والحضارات الاخرى. اضف الى ذلك ان كلام الدكتور صعب يعني من الوجهة العملية الدفاع عن الاوضاع والمصالح العربية القائمة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً والدفاع عن سلامتها والدعوة الى ترك الامور تجري على سجيتها وفي « مجاريها الطبيعية » من باب مراعاة الوضع الوسطي الذي نحن فيه وتسويغه نهائياً مهما كانت النتائج . انهـا دعوة اصلاحية معتدلة باسم الدين والتقاليد والتقدم أيضاً ، وهي في النهاية ، ترفض قطعاً التدخل الجذري المباشر بغية تغيير هذه الاوضاع وهزّها وقلبها كما يدعو الى ذلك المنطق الاشتراكي العلمي الثوري بطرقه التي نعتقد بأنها السبيل الوحيـد أمام العرب لمجابهة التحديات التي تستفزهم اليوم على جميع المستويات في وجودهم في الواقع انعكست هذه الوسطية حتى في الاوساط التي يفترض فيها ان تمثل اليسار العربي الاشتراكي العلمي في

(٧٠) « الاسلام وتحديات الحياة العصرية » ، « حوار » ، بيروت ، تموز- آب ١٩٦٥ ، ص ٣١ .

الجمهورية العربية المتحدة فوجدت هناك من يروج لها ويسوغها ويفلسفها الى أن خرجت علينا فئة من هذا اليسار بتركيبة جديدة عجيبة غريبة ، اسمها الاشتراكية - العربية - العلمية - الاسلامية - المؤمنة [٧١] .

ومن نتائج الغموض الذي يحيط بأفكار الثورة العربية وبمغازي انجازاتها العملية طغيان مفاهيم سطحية لمعنى تأسيس الدولة الاشتراكية على فكر حركة الثورة العربية ، واعني بذلك المفاهيم التي لا تتعدى مستوى الاصلاح الزراعي والتأميم (الاصلاح الصناعي) ومجرد العمل على خلق جو من الاستحسان لدى الطبقات الكادحة بتمليك بعض من افرادها قطعاً من الارض أو توزيع بعض المبالغ المالية عليهم من أرباح المصانع التي أصبحوا يملكونها بحكم كونها جزءاً من القطاع العام . هذه التدابير ومثيلاتها تنبع من عقلية لاتزال تدور في فلك مفهوم مهتز ومائع للملكية الخاصة ولم تستوعب بعد المفهوم الاشتراكي العلمي للملكية والشيء نفسه يقال بالنسبة لنوع الاهتمام السطحي الذي تبديه الانظمة العربية التقدمية بالتراث والتقاليد

---

(٧١) راجع مثلا المقالات التالية في مجلة « الكاتب » المصرية : الدكتور محمد أحمد خلف الله ، « القرآن الكريم والمضامين الاشتراكية » ، تموز ١٩٦٦ . عبد المقني سعيد ، « التجربة الاشتراكية العربية » ، كانون الثاني ١٩٦٧ ، وآذار ١٩٦٧ .

والقيم الدينية والمسرح الشعبي والادب الشعبي والفن الشعبي الخ.. إذ أنه بسبب الوسطية الفكرية والتطبيقية التي تعاني منها الثورة العربية تحوّل هذا الاهتمام إلى نوع من الرجعية المستترة التي تقاوم التقدم العلمي والتطبيق الاشتراكي العلمي والانقلاب الثقافي الذي تنشده المجتمعات السائرة على هذه الدروب، وكل ذلك باسم العمل على حماية تقاليد الشعب وقيمه وفنه وتراثه بينما اصبح هذا العمل بالفعل صيانة للغيبيات الشعبية والخرافات والجهل والقيم المتخلفة المهترئة واجترار القديم على قدمه وترك الاوضاع الاجتماعية والعلاقات الانسانية القائمة كما هي قائمة أي بوضعها المتخلف جداً. لا شك أنه لا حياة لحركة الثورة العربية إلا باعتمادها، إلى ابعد الحدود، على الارادة الشعبية وعلى الجماهير العاملة والطبقات الكادحة باعتبارها القوة التاريخية الصاعدة، غير أن هذا لا يعني أن أوضاع الجماهير العربية الذاتية والعقلية والنفسية والتربوية والثقافية والاجتماعية الخ... لا تحتاج إلى تصحيح جذري وأساسي وثوري. من الجلي أن الجماهير العربية رازحة تحت عبء ثقيل من المشاعر والاحاسيس وطرق التعبير واساليب التفكير التي تكونت نتيجة لمئات السنين من الانحطاط الحضاري والثبات الثقافي والعلمي العميق. وهذا العبء مستعد لمقاومة التقدم والثورة والاشتراكية وكل تبديل وتغيير في الحياة العربية بمجرد فعل قوة الاستمرار الكامنة فيه. بسبب تركة التخلف والانحطاط هذه نجد أن السواد الاعظم من الجماهير العربية يصدق بالسحر والخرافات اكثر

بكثير مما يصدق بالحقائق الملموسة ، ويفضل الاستشارة الصحية الآتية من الشيخ أو الساحر على مشورة الطبيب الاخصائي ، وتهزه التمتمات الدينية اكثر بكثير مما يؤثر فيه أهم اكتشاف علمي أو اخطر اختراع صناعي في الدنيا . ولا شك أن مبرر وجود الانظمة التقدمية والاشتراكية في الوطن العربي هو الثورة على هذا العبء من التخلف الذي حمله الانسان العربي وليس مهادنته ومسايرته ومماشاته والاحجام عن الاجراءات الثورية الاشتراكية الموجهة ضده بحجة « مراعاة مشاعر الجماهير الدينية » وباسم « الصدمة التي سيتلقاها ابناء الشعب الذين ما زالوا يتمسكون بتقاليد عتيقة وبغيبيات انحدرت اليهم من الماضي السحيق » وباسم حماية التقاليد والحفاظ على التراث الشعبي إلى آخر ذلك من الاعذار والذرائع . حين تهادن الانظمة التقدمية الوسطية نزعات التخلف والانحطاط الحضاري المستشرية في المجتمع العربي وتسايرها ، بمناسبة وبغير مناسبة ، انها تفعل ذلك على حساب المصالح الحقيقية للجماهير العربية الكادحة لأن مثل هذا التصرف يتستر على الجهل والتخلف والقبلية والاتكالية والغيبية ، أي يسمح لاوضاع حضارية فاسدة بأن تستمر بالرغم عن ان الشعب العربي لم يحصد منها في القرن العشرين إلا النكبات والنكسات والمآسي والضعف .

وبهذا الصدد اريد ان اتطرق الى مقال كتبه الياس سحاب حاول فيه نفي صفة الوسطية عن النظام الناصري والتأكيد

على انه « نظام الثورة الاشتراكية الرائدة في العالم الثالث . » ثم ذكر في معرض ذلك شيئاً عن بناء الانظمة في العالم الثالث وفقاً « للطريق غير الرأسمالي » وشدد على

> ان نظـــام عبد الناصر هو نظـــام الثورة الاشتراكية الوطنية ضمن اطار ظروف العالم الثالث التي لم يخترها عبد الناصر بملء ارادته ، بل كانت نتيجة طبيعية لتوليه الحكم في بقعة معينة من العالم وفي ظرف تاريخي معين (٧٢).

حـــين نأخذ على النظام الناصري وسطيتـــه في النظرية والتطبيق اننا لا نهمل ابداً اطار تلك الظروف التي كان العالم الثالث خاضعاً لها والتي اضطر الرئيس عبد الناصر للعمل من ضمنها . لذلك اعتقد ان سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابي وشعار الطريق غير الرأسمالي في تطوير البلاد قد خدمت القضية العربية الى أقصى الحدود في مرحلة خطيرة من مراحل تطورها واحرزت نتائج ايجابية تحررية كبيرة لصالحها ، ولا ريب أن الفضل الأكبر في تحقيق ذلك يعود إلى قيادة الرئيس عبـــد الناصر الفذة لجماهير الامة العربية . كما ان القول بوسطية النظام الناصري ونقده على هذا الاساس ليس بدعة جئنا بها نحن بل

---

(٧٢) المحرر ، بيروت ، ٢٩ نيسان ١٩٦٨ .

هو قضية اساسية مطروحة في اوساط اليسار العربي الماركسي وفي مصر بالذات اكثر من أي مكان آخر . وكل من يراجع مجلة «الطليعة» المصرية ومجلة «الكاتب» يتيقن من ذلك وخاصة في المقالات التي نشرت بعد الهزيمة مباشرة (٧٣).

ومن ناحية اخرى يبدو لي ان الوسطيـة أصبحت مشكلة ملحة لأن اطار ظروف العالم الثالث ، الذي تكلم عنه الياس سحاب ، قد تغير تغيّراً جذرياً والظرف التاريخي المعين الذي تولى فيه الرئيس عبد الناصر الحكم في بقعة من العالم الثالث قد تبدل إلى ابعد الحدود وخاصة بعد هزيمة الخامس من حزيران . وينتج عن ذلك حقيقة واضحة تقول ان تجميد السياسة العربية ضمن حدود تطبيق شعارات تتصف ، اول ما تتصف بـه ، بصيغتها السلبية في طرح قضاياها « مثل الطريق غير الرأسمالية» و « الحياد الايجابي » و « عدم الانحياز » و « العالم الثالث » الذي يفترض فيه التوسط بين العالم الاول والثاني ، سيؤدي إلى شل السياسة العربية الثورية في مجابهة التحدي الصهيوني القائم مهما كان المستوى الذي نريد ان تتم عليه هذه المجابهـة في ظرف من الظروف . والشيء ذاتـه يقال بالنسبة للشعارات والافكار الوسطيـة المشابهة المطروحة على صعيد السياسة

(٧٣) راجع ايضاً مقالات الكاتب المصري صلاح عيسى في مجلة « الحرية» بيروت ، ١٢ و ١٩ و ٢٦ ايلول ١٩٦٦ ، ومقالات محمد كشلي في المجلة نفسها ، ٢٥ تموز ، و ٨ و ١٥ و ٢٢ آب ١٩٦٦ .

الاشتراكية الداخلية مثل : « الرأسمالية غير المستغلـــة » و « الملكية غير المستغلة » و « تذويب الفوارق بين الطبقات » و « لا سيطرة لطبقـــة على اخرى » . في هذه المرحلة اصبح التجمد عند شعار « الرأسمالية غير المستغلة » مثـــلا ، مجرد تكريس للممارسة الاقتصادية التقليدية التي تعتبر العمل سلعة ليس الا حق لو البسنا هذا التكريس لباس الشرعية بواسطـــة تعابير « الربح المشروع والمعقول » او ما شابهها . وحسبنا ان نذكر ان جماهير الفلاحين والعمال والكادحين تشكل السواد الاعظم من الشعب العربي لندرك الى أي حـــد يرمي شعار « لا سيطرة لطبقة على طبقة » الى ممالئة الطبقات المالكـــة والمرتاحة والمتمتعة بامتيازات خاصة ، والى أي حد هو معاد ، في النهاية ، لمصالح البروليتاريا المسحوقة والجماهير الكادحة (٧٤).

كذلك الامر بالنسبة لشعار « عدم التضحية بالجيل الحاضر من اجل الأجيال القادمة » الذي تحول على المستوى العمـــلي ليعني عدم التضحية بالامتيازات المادية وغير المادية التي تتمتع بها فئات وجماعات قديمـــة وجديدة تطفو على سطح المجتمع وتتنعم بنمط من المعيشة المرتفعة المستهلكة على حساب القاعدة الشعبية وعلى حساب متطلبات التنمية الاساسية وأهدافها في

(٧٤) راجع الملحق المثبت في آخر هذه الدراسة للاطلاع على عدد من الامثلة الواقعية عن وسطية النظام في الجمهورية العربية المتحدة على مستوى النظرية والتطبيق .

البلاد . وماضي الثورة في نضالها العنيف والدامي ضد الاحتلال والاستعمار والاحلاف والبورجوازية الكبيرة والاقطاع في الداخل لم يشفع لها في المراحل التالية ولم يحل دون وقوعها ضحية الضربة التي وجهت اليها من قبل اسرائيل والاستعمار الجديد . في الواقع اريد أن اثير تساؤلاً جذرياً بالنسبة لما قاله الياس سحاب في مقاله عن « الثورة الاشتراكية الرائدة في العالم الثالث . » اين هو العالم الثالث اليوم ؟ هل يوجد في الحقيقة ثمة شيء اسمه العالم الثالث بعد حرب حزيران ونتائجها؟ لا شك أن العالم الثالث موجود « كتعبير جغرافي » . أما كقوة فاعلة في تكوين الاحداث العالمية ، تستطيع فرض وجودها المستقل على الكتل الدولية المغايرة فلم يعد له وجود فعلي .في احسن التقديرات والاحتمالات ليس للعالم الثالث اليوم إلا صدى خافتاً جداً لما كان عليه في مرحلة سابقة . ويبدو لي أن الياس سحاب يمثل اتجاهاً عربياً لا يزال يتمسك بسراب تلك المرحلة الفذة لا شك ، ويحن اليها اليوم بينما المطلوب هو تخطيها تخطياً كلياً وتاماً . فبعد ان تم القضاء على الانظمة الوطنية التحررية الرئيسية في العالم الثالث (وذلك في عقر دارها) تلقى العالم الثالث ضربة اخرى شبه قاضية تمثلت في الهزيمة العربية أمام اسرائيل . وعلى أثر ذلك اصبحت « الثورة الاشتراكية العربية الرائدة في العالم الثالث » ، على حد تعبير الياس سحاب ، في وضع مترد إلى درجة جعلها غير قادرة على

أكثر من أن تطلب ، على لسان المتحدث الرسمي للجمهورية العربية المتحدة محمد حسن الزيات ، من الدول الاعضاء في مجلس الامن الضغط على اسرائيل لتنفيـــذ قرار مجلس الامن حول انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ (٧٥). وعليه قارن هـــذا الوضع للثورة الباقية على قيد الحياة في العالم الثالث بوضع آخر تمثل بخروج اندونيسيا من هيئة الامم المتحدة ، هذا الخروج الذي جاء مفعماً بروح التحدي والثقة بالنفس . مثل هذه المقـارنة ستبين لنا اذا كان ثمة وجود ، بعد الخامس من حزيران ، لـ « العالم الثالث » .

واخيراً لنسأل انفسنا ما هي هذه الطريق غير الرأسماليـة لبناء البلاد ، التي ذكرها الياس سحاب ، وعلى ماذا يمكن أن تقوم اليوم ؟ أعلى انقاض الفلسفة « الوجدانية » التي روج لها نكروما ؟ أم على التركة « الايديولوجية » الواضحة التي انتقلت من سوكارنو الى سوهارتو ؟ أم على آراء الداعية الكبير لسياسة عدم الانحياز كريشنا مينون الذي لم يعد يسمع له صوت ابداً في عزلته السياسية اليوم ؟ أم انطلاقاً من القبول العربي غـــير المشروط بقرار مجلس الامن لتسير بعده الثورة على « طريق التقدم غـــير الرأسمالية » بعد أن تكون قد وافقت على ضمان الحدود الآمنة لاسرائيل كما ينص على ذلك قرار مجلس الامن

(٧٥) النهار ، ٢٢ ايار ١٩٦٨ .

إياه ، في حين يصرح دايان معلقاً على الحدود الآمنة قائلاً : « إن أمن إسرائيل هو حيث يقف جيشها »[٧٦]. حين أنظر الان إلى الأشياء والأمور المعنية حولي لا أرى ثمة شيء اسمه العالم الثالث ، بل أرى « عالماً ثانياً » يتجلى بنصاعة وبطولة في فيتنام وفي كوبا وفي إرادة الشعوب الاشتراكية الأخرى الواقفة بجانب الصمود الفيتنامي والصمود الكوبي مادياً وفعلياً ومعنوياً . وأرى بمقابل ذلك « العالم الأول » كما يظهر في الفيتنام نفسها ، عاجزاً في غزوه ونابالمه وأساطيله وقلاعه الطائرة من الـب ٥٢ إلى ف ١١١، وكما يظهر حول كوبا بحصاره الاقتصادي ووكالات استخباراته ومحاولاته العدوانية المفضوحة . بعبارة أخرى ما لم تنجح حركة الثورة العربية في تخطي الموقف الوسطي الذي نحن بصدده باتجاه اتخاذ مواقف اشتراكية علمية واضحة ومتحدية أخاف عليها أن تنتهي في مصيرها إلى مصير كتلة العالم الثالث ذاته فنغدو « تعبيراً تاريخياً » لا أكثر كما أصبح هو « تعبيراً جغرافياً » فحسب .

وبمناسبة مناقشة موضوع الوسطية لا بد من التطرق إلى مراجعة شعار « تصفية آثار العدوان » وتمحيصه بعض الشيء على ضوء تطورات الأحداث وخاصة بعد مرور سنة على

---

(٧٦) **النهار** ، ٢٨ أيار ١٩٦٨ ، ص ٨ .

طرحه لعلّنا نرى ما تبقى من معناه وجدواه لقضية فلسطين بعد أن طغت أجواء الحل الدبلوماسي وأجواء الالتفاف العربي حول مهمة يارنغ على السياسات العربية الفعالة الحاضرة . طرح الأديب والمعلق غسان كنفاني مسألة هذا الشعار بصيغة سؤال هام : « هل نريد قرار مجلس الأمن حـلاً للقضية الفلسطينية ، أم حلاً لآثار العدوان فقط ؟ »[٧٧] أريد مناقشة الموضوع من زاوية تساؤل آخر : هل بإمكاننا التمييز حقاً بـين حل القضية الفلسطينية وبين حل مشكلة تصفية آثار العدوان ؟ تفيد قضية تصفية آثار العدوان بابسط معانيها رجوع جيوش الاحتـــلال الاسرائيلي – لسبب من الأسباب – إلى قواعدها قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ . وجلي أن أية محاولة عسكرية عربيـــة لتصفية آثار العدوان برد الجيوش الاسرائيلية إلى حدودهـــا السابقة عن طريق الحرب والقتـال ستجابه بـدفاع عسكري مستميت من قبـل إسرائيل للحيلولة دون هـذا الانسحاب الاضطراري . أي ستدافع إسرائيل عن الأراضي المحتلة بعد حزيران تماماً كما كانت ستدافع عن حدودها السابقة وبنفس الضراوة والتصميم والعنف. بعبارة أخرى أن أية محاولة لتصفية آثار العدوان عن طريق الحرب (نظامية كانت أم شعبية) سوف تعني المجابهة العسكرية الشاملة مع إسرائيل بدون أي

---

(٧٧) الأنوار، ١٩ أيار ١٩٦٨.

ميز أو تفريق بين حدودها السابقة وبين حدود «آثار العدوان».
حين يصبح بمقدور القوات العسكرية العربية (نظامية وشعبية) التصدي لجيش إسرائيل ورده بالقوة إلى الوراء واضطراره إلى الانسحاب من مناطق «آثار العدوان» لا يمكن أن نتصور القوات العربية المنتصرة وهي تقف عند حدود إسرائيل القديمة بحجة نجاحها في تصفية آثار العدوان وبأمل العودة إلى معركة تحرير فلسطين فيما بعد! وبما أن إسرائيل تعرف ذلك حق المعرفة فانها ستدافع عن مناطق «آثار العدوان» دفاعاً مستميتاً نهائياً أمام أي هجوم عربي لتصفية آثار العدوان بالقوة لأنها تعلم أن هزيمة جيشها في المناطق المحتلة في حرب حزيران تعني حتماً هزيمتها كدولة ونهايتها كواقع سياسي قائم. في الواقع لا يوجد ثمة فارق على الاطلاق بين تصفية آثار العدوان عن طريق القوة وبين دخول الحرب من جديد مع إسرائيل. أي أن الحل العسكري لتصفية آثار العدوان غير ممكن أصلاً بدون المساس باسرائيل نفسها وهو لا يعني شيئاً مختلفاً، من الناحية الفعلية، عن الحل العسكري لتصفية إسرائيل كدولة وحل قضية فلسطين عن طريق الحرب الشاملة بغية تدمير دولتها وإنجاز معركة التحرير بنجاح.

معروف أن قضية تصفية آثار العدوان كما هي مطروحة رسمياً الان لا يمكن أن تعني سوى تصفيتها على أسس التسويات السياسية. وهذا يعني ــ عملياً ــ القبول بوجود إسرائيل حقيقة

واقعة في المنطقة ولكن بدون مفاوضتها أو توقيع المعاهدات معها أو الاعتراف بها . ومرة أخرى لا يمكن فصل مشكلة تصفية آثار العدوان عن كيان إسرائيل وبالتالي عن قضية فلسطين ، إذ أن انسحاب إسرائيل على الأسس السياسية سوف يعني فعلياً استمرارها هنا إلى أجل غير مسمى بكل ما يعنيه هذا الاستمرار في تحويل القضية الفلسطينية ـ مع الزمن ـ إلى ذكرى . وهذا واضح من قرار مجلس الأمن الذي قبله العرب رسمياً وكلياً وبدون تحفظات أو شروط مع أنه ينص على « إنهاء حالة العداء » و« احترام سيادة كل دولة في المنطقة » و « ضمان حدود آمنة ومعترف بها للجميع »[٧٨] الخ ... أي تحويل علاقة الدول العربية مع إسرائيل إلى وضع يشبه علاقة الولايات المتحدة بجمهورية الصين الشعبية ، حيث لا معاهدات ولا مفاوضات ولا اعتراف .

---

(٧٨) راجع تصريحات السيد محمود رياض ، وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة، حول هذا الموضوع ، **الأنوار** ، ١٢ أيار ، ١٩٦٨ . راجع أيضاً الندوة المهمة التي اشترك فيها ثلاثة من الوزراء الاردنيين كما نشرتها **الأنوار** في ٤/٨/١٩٦٨ . يتضح من كلام الوزراء ـ بما لا يقبل التأويل ـ ان الاهتمام العربي الرسمي بأكمله لا يدور الآن إلا في فلك الخروج من المحنة الحالية عن طريق الحلول السلمية والدبلوماسية وقرار مجلس الأمن والتنديد بإسرائيل لرفضها القرار إياه .

لنرجع الان إلى سؤال غسان كنفاني : « هل نريـــد قرار مجلس الأمن حلاً للقضية الفلسطينية ، أم حلاً لآثار العدوان فقط ؟ » لا يوجد ثمة شيء اسمه حل قضية « آثار العدوان فقط » بمعزل عن القضية الفلسطينية . هذا غير ممكن عسكرياً وغير ممكن سياسياً . الحل العسكري يعني المجابهة الحامية مع إسرائيل ككل وإن نجح في تصفية آثار العدوان يكون قد نجح أيضاً في حل القضية الفلسطينية . والحل السياسي (قرار مجلس الأمن) يعني تثبيت إسرائيل وضمان وجودها وإن نجح في تصفية آثار العدوان يكون قد نجح أيضاً في حل القضية الفلسطينية لصالح إسرائيل .

وخلاصة القول هو أن شعار تصفية آثار العدوان كقضية قائمة بذاتها لا معنى له ولا جدوى ترجى منه والأفضل التخلص منه بأسرع ما يمكن لأنه ـ إن كنا جادين حقاً بالنسبة للقضية الام ، قضية تحرير فلسطين ـ علينا مجابهة اسرائيل مجابهة فعالة على مستوى حرب التحرير ولا فارق في ذلك إن كانت إسرائيل داخل حدودها القديمة أم داخل حدودها الجديدة في مناطق « آثار العدوان » .

٣) من المعروف أن الشعوب والدول النامية التي اتخذت الاشتراكية العلميـــة طريقاً لتقدمها وتطورها السريع اعتمدت إلى أبعد الحدود على تعبئة جميع الطاقات البشرية

المتوفرة عندها في خدمة أهدافها الوطنية والتقدمية في نضالها ضد التخلف والتبعية والضعف والغزو الاستعماري مهما كانت أشكاله . بعبارة أخرى ، لقد نجحت هذه المجتمعات والدول الثورية في تحويل المادة البشرية المتزايدة في بلادهـا من معضلة تقليدية وآفة راسخة ومتوارثة اسمها « مشكلة تزايد السكان» إلى مورد طبيعي رئيسي من موارد الطاقـــة الانسانية الجسمية والعقلية والفنية في جميع ميادين الإنجاز والبناء . وهنا لا بـد من الإشارة إلى أن حركة الثورة العربية كما تتجسد في الأنظمـة التقدمية لم تحقق إلا القليل القليل في هذا المضمار ولم تحـاول ، بصورة جدية ، تحويل الجماهير العربية إلى طاقات بشرية وعقلية فعالة منظمة في مواجهة التحديات الحضارية القائمة أو في مواجهة التحديات العسكرية الصهيونية الساخنة . إن أكـــبر مثل على الطاقات العربية البشرية المهدورة هدراً تاماً هو نصف الشعب العربي بالتمام والكمال ، وأعني بذلك المرأة العربية . عندمـــا ننظر الى الموضوع من هـــذه الناحية نرى أن الشعب العربي لا يتكون من مئة مليون نسمة ، كما قالت لنا الاذاعات ، بل مـن خمسين مليون فقط : ولا شك أن المرأة العربية تشكل اليوم في مجتمعنا أضخم مستودع للطاقات الانسانيـة الكامنة غـــير المستخدمة وغير المسوسة بعد . انها أعظم كتلة من المـــادة البشرية والعقلية الخام التي تملكها الأمة والتي لم تستفد منهـــا حركة الثورة العربية بأي وجه من الوجوه . كما أنه مـن أهم الدلائل على درجة النجاح والرقي الذي وصل اليه نظام اشتراكي

ما في دفع مجتمعه الى الأمام ، وخاصة في الصناعة الحديثة ، هو مدى استخدامه لجميع الطاقات البشرية والعقلية والفنية المتوفرة لديه وتعبئتها بأسرها بدون تمييز بين انسان وآخر الا على أساس المهارة والتدريب والاخلاص والموهبة والفطنة . مثل هذا المجتمع الدينامي النامي حقاً السائر في طريق الاشتراكية العلمية لا يجد متسعاً من الوقت يضيعه في جدل عقيم حول أهلية المرأة لدخول المصنع أم بقائها في البيت لأن ضرورات التنمية والتقدم والتحويل الاشتراكي هي التي تحسم النقاش . نص بيان ٣٠ آذار في الجمهورية العربية المتحدة على « أن ينص الدستور على تأكيد أهمية العمل باعتباره المعيار الوحيد للقيمة الإنسانية »[٧٩]. هذا مبدأ تقدمي كبير كان يفترض من نظام ثوري اشتراكي ان يلتفت اليه منذ البداية لا بعد الهزيمة . وحين نزين الأمور على أساس المبدأ المذكور نجد أن المرأة بوضعها الحاضر في المجتمع العربي ليس لها قيمة انسانية البتة ، حتى في المجتمعات العربية الاكثر تقدماً وتقدمية . ولن يفيدنا هذا المبدأ ما لم يتحول بسرعة الى تشريعات مفصلة تنظم حياة المجتمع بدقائقها وتمارس ممارسة يومية الى أن يكتسب نصف الشعب العربي قيمته الانسانية بعمله وانتاجه . ولن يفيدنا هذا المبدأ المهم مالم يتكامل مع مبادىء اشتراكية أخرى لا تزال غير مطبقة في البلاد العربية التقدمية ، بالرغم من انها من بديهيات الانظمة الاشتراكية في كل مكان . بعبارة أخرى لا تزال التشريعات والعادات والاعراف القائمة في البلدان العربية التي تبنت الاشتراكية بعيدة كل البعد عن النظر الى المرأة على أساس اعتبار « العمل المعيار الوحيد للقيمة الانسانية » . أي

---

(٧٩) الأنوار ، ٣١ اذار ، ١٩٦٨

على أساس استقلالها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي باعتبارها عضواً عاملاً في المجتمع وطاقة فعالة ومنتجة من طاقاتـــه . في الواقع لا يزال الاشتراكيون العرب انفسهم ينظرون اليهـا على أساس أفكار رومانسية للامومة وتربية الاجيال ، وقيم قبلية تدور حول الشرف والعرض وإطاعة الزوج ، وكون « الرجال قوّامون على النساء » و « لهم عليهن واحدة » [٨٠].

يخبرنا أديب قعوار في مؤلفه عن المرأة اليهودية في اسرائيل انه حين زارت الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار اسرائيل في نيسان ١٩٦٧ وارادت التعرف على المرأة اليهودية التي تركت بصماتها على كيان اسرائيل وساهمت في استعمار فلسطين، ذهبت لمقابلة المرأة العاملة في الكيبوتز والمرأة العاملـة في المدن وفي المهن الحرة [٨١]. ولو ارادت سيمون دي بوفوار التعرف على المرأة العربية التي تركت بصماتها على كيان حركة التحرر العربية وساهمت في بناء المجتمعات التقدمية الحديثة في الدول العربية

---

(٨٠) وبالمناسبة نذكر الثوريين الاشتراكيين العرب بما ذكره كـــارل ماركس حول هذا الموضوع . قال : « بامكاننا دائما تحديد مدى تطور عهد تاريخي معين بدرجة تقدم النساء في طريق الحريـــة ... ان درجة انعتاق المرأة تمثل المقدار الطبيعي للانعتاق العام . » (ماركس- انجلز ، « المؤلفات » ، الطبعه الروسية ، ج ٢ ، ص ٢٢٤) .

(٨١) اديب قعوار ، « المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة » ، منظمـــة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٩ .

ذات الانظمة الثورية ، إلى من كانت ستلتفت ؟ ألى رئيسات الاتحادات النسائية ؟ أم إلى سيدات المجتمع العاملات في الصليب الاحمر أو الهلال الاحمر ؟ الحقيقة هي لا يوجد شيء اسمه المرأة العربية العاملة التي تركت بصمات اصابعهـــا على تكوين المجتمع العربي الحديث . لقد عرفت الصهيونية منذ نشأتها كيف تستفيد من جميع الطاقات البشرية المتوفرة لديها بدون استثنـاء وهذا أمر لم تتعلمه حركة الثورة العربية حـــتى اليوم . يقول اديب قعوار في كتابه المشار اليه :

> وخلال الثورات العربية المتتالية ساهمت المرأة اليهودية في الدفاع عن المستعمرات اليهوديـة وتكرر ذلك في ثورات ١٩٢٤ ، ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، إذ تجندت اليهوديات وحمت حاملات السلاح منهن خطوط المواصلات اليهودية [٨٢].

كما أنه اثبت نص النداء الذي وجـــه إلى النساء اليهوديات للانخراط في الفرقة النسائية الاجنبية التابعة للجيش البريطاني بهدف محاربة الالمان والافادة من الفرصة للتدريب على العمـل العسكري وذلك لخدمـة اهداف بعيدة المرمى . قال النداء :

> ان النساء اليهوديات يشعرن بواجب المساهمة

(٨٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

في النضال ضد عدو شعبنا . ونحن نعلم اننا
نتمتع بالكفاءة لمجابهة هذا الامتحان كما نشعر
ان الواجب القومي يدفعنا للتطوع في هـــذه
الساعة الحرجـة . ونتطلع إلى العمل في قوة
يهودية مقاتلة تعمل إلى جانب غيرها من القوى
من جنسيات مختلفة تحت أمرة القيادة البريطانية
حيث يفسح المجال أمام اليهوديات لتكريس كل
قواهن ليس فقط في القوة المساعدة بل ايضاً
في العمل العسكري نفسه ، كما عمـــلن إلى
جانب الرجل في ايام السلم (٨٣).

والشيء ذاته يتردد اليوم في الفيتنام حيث تعبـــأ جميع الطاقات الانسانية المتوفرة بدون إستثناء. يقول كاتب فيتنامي ما يلي :

وكان جيش النساء « جيش الشعور الطويلة »
بصموده واستبساله مرهوب الجانب من قبل
الضباط والموظفين والعملاء . . . ان هذا
الاشتراك المباشر للجماهير، والنسوة منهن خاصة
قد لعب دوراً حاسماً في الحرب . (٨٤)

---

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(٨٤) ترجمة فواز طرابلسي، «دراسات عربية»، أيار ١٩٦٨، ص ٨٠ .

وفيما يلي مقطعاً مما كتبته احدى الفتيات اليهوديات السوريات التي ذهبت إلى فلسطين لتترك بصمات أصابعها على عمليات استعمارها وتشريد شعبها وبناء الكيان الاسرائيلي . كتبت :

لا أزال أذكر ما حدث في ١٩ / ١٢ / ١٩٤٣ ، لقد مر عامان تقريباً على هذا التاريخ الذي اتينا فيه إلى أرض الوطن . لقد مر الوقت بسرعة . خارجياً لا نزال نحن الفتيات « السوريات » انفسهن كما يدعوننا . وكما يظهر لا تزال تظهر علينا تلك النعومة الشرقية ، ولكن من الداخل فقد حدثت تغييرات كثيرة بطريقة تفكيرنا ، بتطلعاتنا وآمالنا . أذكر جيداً في أيامنا الاولى هنا كيف كنا ننظر إلى العمل بتعالٍ . ثياب العمل – السراويل الطويلة والجزم العالية – كانت غريبة جداً بالنسبة لنا . ولكن لما عدت إلى سوريا لرؤية اهلي ، لم أتمكن ألا أن الاحظ أن صديقاتي هناك لم يتغيرن مطلقاً واستمررن بالاهتمام بشكل رئيسي باشياء مثل الثياب الجميلة ، والجرابات الحريرية والحلى وغيرها .

سأخبركم شيئاً طريفاً حدث لي أبان زيارتي.

فقد أتت إحدى صديقاتي لزيارتي وهي تتحلى بالاساور الذهبية . لقد بدا ذلك غريباً بالنسبة لي إذ لم أرى مثل هذه الحلى منذ مدة طويلة . لقد سخرت منها وسألتها فيما لو أن خشخشة الاساور أهم من الارض التي تعطي الكثير من الناس خبزهم اليومي . فأجـــابت على تساؤلي بالضحك . ففكرت بنفسي : كم لا يزال شبابنا بعيدين عن الصهيونية وكم من العمل لايزال أمامنا لكسبهم (٨٥).

بيـنما كان العدو ينظـر إلى المرأة على أساس ثياب العمـل ، والسراويل الطويلة ، والجزم العاليـة ، والارض التي تعطي الانسان خبزه اليومي لا تزال المرأة العربيـة أسيرة « خشخشة الاساور الذهبية » بكل ما تعنيه هذه العبارة من السلبيـــات وذلك تحت إشراف الانظمة العربية الاشتراكية التقدمية وسمعها وبصرها .

يبدو لي أن عدداً كبيراً من الشباب العرب الثوريين — ان كانوا ملتزمين رسمياً بتنظيم سياسي تقدمي اشتراكي أم لم يكونوا — سوف يستوعبون هـــذا الكلام عن المرأة ، بسبب

---

(٨٥) « المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة » ، ص ٧٥ - ٧٦.

عفويتهم التقليدية وتربيتهم المحافظة الراسخة ، على أنه نوع من الرأفة من قبل الرجولة بالجنس المدعو«باللطيف » و« الضعيف»، أو على أنه نوع من التساهل والتهاون والتنازل للنساء من قبل الرجال المتفوقون عليهن عقلا وبنية الى آخر الاسطورة المعروفة وينطبق هذا الكلام على المثقفين منهم والطلاب والمفكرين والكتاب قبل غيرهم من الفئات . غير ان فهم القضية على هذا النحو السطحي معاد للافكار والممارسات الثورية الاشتراكية الجديرة بالاسم . لذلك لا مفر من تذكير هؤلاء بما ذكره لينين حول هذة المسألة . قال :

> تبين تجارب حركات التحرر كافة ان نجاح الثورة يعتمد على مدى مشاركة النساء فيها وتقوم الحكومة السوفياتية بفعل كل ما في وسعها لتمكن المرأة على حمل اعباء العمل البروليتاري الاشتراكي مستقلة ... لن تتمكن البروليتاريا من تحقيق الحرية التامة حتى يتم لها تحقيق الحرية للمرأة كاملة (٨٦) .

المسألة في جوهرها ، إذن ، ليست مسألة رأفة وتنازلات . من الناحية الاشتراكية الصرف تشكل المرأة في الوطن العربي أعظم احتياطي انساني كامن للطبقة العاملة عامة (ريفاً ومدناً)

---

(٨٦) . Lenin on the Emancipation of Women, pp. 58 ,76

وانحياز هذا الاحتياطي الى صفوفها على المدى البعيد سيكون له ابلغ تأثير بالنسبة لمصير قضية الاشتراكية العلمية في وطننا. ومن الناحية الاجتماعية والانسانية انها قضية النضـــال لتحرير نصف العنصر البشري في المجتمع العربي من اوضاع تخلف عقلي ومعنوي ومادي رهيبة الى ابعد الحدود . تحرير افراد هـــذا العنصر من تقاليد استبدادية مرعبة تجعل من المرأة – الانسان جارية تعمل في المنزل للسهر على راحة وخدمة مالكها وسيدها ومولاها .وليس لنا ان ننخدع بمظاهر التحرر الخارجية وحدها على طريقة تحرر « العرائس البورجوازيات » واشباههـــن لأن للتحرر معــــانيَ أعمق وارسخ لا يمكن أن تتحقق ما لم تصبح المرأة العربية طاقة انتاجية فعالة وخلاقة في حياة المجتمع العربي وتفرض نفسها على الرجل التقليدي على هـــذا الاساس . ولا اعرف مجتمعاًمعاصراً واحداًينسب لنفسه عن جدارة واستحقاق تطبيق الاشتراكية يستطيع أن يتصور أن بامكانه انجاز خطة واحدة من خططه الخمسية او تحقيق مشروع اقتصــادي أو انتاجي أو اجتماعي كبير أو الصمود في وجه العدو حتى النصر بدون اشراك القوى العاملة النسائية واستنفارها على اوسع نطاق، باستثناء مجتمعات الاشتراكية العربية !

يفترض ، بصورة عامة ، في من يأخذ على عاتقـه واجب النقد أن ينتهي إلى تقديم الحلول للمعضلات والمآزق التي حددها وبلورها في بحثه . وإذا كان القارىء لا يزال يبحث عن جوانب

يمكن تفصيله في صفحتين أو ثلاثة ويفترض بي أن أقدمـــه له باعتباره المفتاح السحري الذي سيخرج الامة العربية ، بقـدرة قادر ، من محنتها الحـاضرة فاني اطمئنه منذ الآن بأن بحثه عن مثل هذه الاجوبة والحلول هو اسرع طريق وأضمن سبيل إلى استمرار اوضاع الهزيمة في مجتمعنا وترسخ مقدماتها وذيولهـــا في نفوسنا . هذا بالنسبة للحلول السحريـة السريعة التي كثيراً ما فكر المواطن العربي – وحتى الحكومات والانظمة العربية – من خلالها وعلى اساسها بدون تسميتها بهذا الاسم طبعاً .

اما بالنسبة للحلول الاكثر جدية فقد طرح الكثير منها مثل الوحدة الفورية بين الدول العربية ، (تتراوح الاقتراحات بين الوحدة التامة والوحدة الفدرالية)، الوحدة بين الدول المتاخمة لاسرائيل ، الوحدة العسكرية ، التضامن العربي ، التعبئـــة الاقتصادية ، وضع البترول العربي والارصدة العربية في خدمة القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية على وجه التخصيص ، اتباع الاساليب العلمية في الدعايـة والتخطيط الخ ... حرب التحرير الشعبية وهلم جرا . غير ان كافة مقدمي هذه الحلول تقريباً ينظرون إلى امكانية تحقيقها – ولو جزئياً – على اساس نظرة ساكنـــة للاوضاع العربية الراهنة والكيانات السياسية القائمة وقبولها على ما هي عليه . لذلك تتحول الدعوة الى ضرورة الالتزام بهذه الحلول إلى نوع من الفكر التبشيري والخطابي أحياناً لأن اصحاب الحلول المقترحة لا يقرون بأن دعوتهم –

بكل ما فيها من افكار ممتازة لو طبقت ومقترحات خطيرة ومفيدة لو نفذت – غير مرشحة للتطبيق الجدي والتنفيـــذ الفعلي المستمر ما دامت الاوضاع العربية والكيانات السياسية والقوى المهيمنة ما قبل الهزيمة هي هي ، في جوهرها ، بعد الهزيمة . ولا شك أن المراقب للاوضاع العربية الحالية يلاحظ ان الانظمة الرجعية انتعشت وارتاحت بعد الهزيمة والانظمة الثورية لم تعد قادرة على تخطي نفسها إلى صعيد أعلى وارفع في ثوريتها وإشتراكيتها وفي جرأتها القيادية الفعالة لتكون في مستوى الرد الشامل على الاحتلال الصهيوني للاراضي العربية قديمها وجديدها . وعلى سبيل المثال أورد للمناقشة ما قاله وليد الخالدي في معرض تحديده للاستراتيجية العربية الناجحة في هذه المرحلة من التصدي للاحتلال :

> فاني اعترف بانني لا افهم معنى لاستراتيجية جدية للتصدي للخطر الصهيوني ودحره لا ترتبط عضوياً : فكرياً وعملياً بمبدأ الحشد الكامل لكافة الطاقات العربية على اساس تعايش الكيانات السياسية والنخب العربية واعتبار الخطر الصهيوني الاول والاهم وفوق كل اعتبار على جدول اعمالنا الآتي والباقي حتى تحقيق النصر [٨٧] .

(٨٧) «فلسطين عام ١٩٦٨» ، «الثقافة العربية» ، بيروت ، تموز – آب ١٩٦٨ ، ص ٢٧٩ ،

يتطلب مبدأ الحشد الكامل لكافة الطاقات العربية اجراءات فعلية تؤدي مثلا الى جعل البترول العربي والارصدة العربية سلاحاً فعالاً (وفتاكاً) في مجموع الجهد العربي ، والى تحويل الاقتصاد العربي إلى اقتصاد حرب فعلا ، وإلى تعبئة الجماهير بصورة منتظمة ومشاركة في المعركة (وليس تعبئتها عاطفياً في ٢٤ ساعة عن طريق الاذاعات) ، وإلى الحد من النفوذ الاجنبي في اقتصاديات وسياسات دول عربية كثيرة ، وحتى إلى بناء الملاجيء وتحصين المدن الخ . . وإذا لم يكن هذا هو المعنى الاساسي لمبدأ حشد كافة الطاقات العربية الذى يذكره وليد الخالدي يكون المبدأ عندئذ أمر شكلي بدون مضمون أو حقيقة على مستوى الواقع الملموس . وتبقى النظرة الاساسية التي تقوم عليها دعوة وليد الخالدي إلى ممارسة مبدأ حشد كافة الطاقات العربية محصورة في نطاق « الكيانات السياسية » القائمة « والنخب العربية » المهيمنة والتعايش بينها . وهنا اتساءل : هل يتصور وليد الخالدي حقاً إمكان اقدام « الكيانات السياسية » و « النخب العربية » الحالية التي يتكلم عنها على اتخاذ إجراءات بترولية وتعبوية ومالية الخ . . . لتجسيد مبدأ حشد الطاقات العربية بأجمعها ؟ هل في السلوك العربي الرسمي وغير الرسمي ، أثناء الحرب وبعدها بسنة ، ما يدل على أن الكيانات والنخب القائمة مستعدة للاخذ بمبدأ الحشد وتطبيق شعار كل شيء للجبهة ؟ بما أن دعوة وليد الخالدي إلى مبدأ حشد الطاقات العربية لا تشمل أي تصور من قبله لاحلال « كيانات سياسية » مغايرة و « نخب عربية » من

نوع آخر محل الكيانات والنخب السابقة تبقى دعوته جميلة ومفيدة من حيث المبدأ ولكنها بدون أية فعالية لأنها فاقدة كل ارتباط بطبيعة الواقع الذي يستطيع تحويلها إلى فعل وتطبيق وتنفيذ مستمر ومتراكم في نتائجه . وكما انه ما كان بالامكان التوقع من الانظمة العربية التي تحملت عبء هزيمة سنــــة ١٩٤٨ ان تتخـــذ الاجراءات الفعالة لحشد كافة الطاقات العربية المتوفرة وقتئذ للتصدي للهزيمة والتغلب عليها كذلك يبدو لنا انه ليس من الواقعية بشيء توقع صدور مثل هـذه الاجراءات الحاشدة للطاقات العربية المتوفرة اليوم من قبل «الكيانات السياسية » و « النخب العربية » التي تحمل وزر هزيمة ١٩٦٧ . وذلك لأسباب واضحة تتعلق بالتكوين الطبقي للكيانات والنخب المذكورة على تنوعه واختلافه، وبالمصالح الممتازة التي تمثلها في احيان كثيرة ، وبالارتباطات الاقتصادية الرأسمالية التي تسيطر عليها مما يجعل حوالي ٧٠ ٪ من اقتصاد الوطن العربي اقتصاداً أجنبياً غربياً من الناحية العملية .

تنطبق معظم هذه الملاحظات النقدية على المقترحـات التي قدمهـــا الدكتور يوسف صايغ في مؤلفه « استراتيجية العمل لتحرير فلسطين » [٨٩] وفي محاضرته « التعبئـــة الاقتصادية والنضال القومي »[٩٠]. وهنـا ايضاً نجد ان كافة اقتراحات

(٨٩) دار الطليعة ، بيروت، ١٩٦٨ .

(٩٠) مجلة « الثقافة العربية»، تموز – آب ١٩٦٨ .

الدكتور صايغ (المعقولة والمفيدة جداً من حيث المبدأ) مبنية على فرضية استمرار الكيانات السياسية والانظمة العربية والقيادات القائمة على اوضاعها وحالها من حيث الجوهر والاساس وعلى الامل الطوباوي في أن تتبنى هذه الكيانات مقترحاته واشباهها بصورة طوعية وأن تضعها موضع التنفيذ الفعلي عن طيب خاطر وبدافع من الوطنية والشعور بالخطر الصهيوني ! وعلى سبيل المثال يلح الدكتور صايغ في محاضرته المذكورة على ضرورة توجيه المزيد من الموارد العربية للدفاع ، خطوة ضرورية لا شك. غير أن الدكتور صايغ لا يثير ابداً الموضوع الاهم وهو ما هي الضمانات الحقيقية التي يملكها الشعب العربي بأن الاموال والموارد الاضافية التي يريد توجيهها لأغراض الدفاع ستؤدي إلى نتائج نوعية أفضل مما أدت اليه مخصصات الدفاع العربية في العشرين سنة الماضية ما دام أن ذلك سيحدث ضمن نطاق الاوضاع العربية السابقة على الهزيمة وباشراف نفس « النخب العربية » التي كانت قائمة قبلا ؟

يقول الدكتور صايغ في معرض حديث آخر عن القيادات العسكرية العربية ما يلي : « هذا وقد تبدى ترهل القادة كذلك في عدم اطلاعهم على احدث البحوث العسكرية فلم تظل قواهم الفكرية مشحوذة [٩١] » .

(٩١) «استراتيجية العمل لتحرير فلسطين» ، ص ١٥ .

كلام صادق ووجيه غير أن علاج النقص لا يكمن في مجرد ادخال بعض التعديلات الفوقية على القيادات العسكرية بحيث يتابع القادة احدث البحوث فيتجنبون الترهل . في الواقع أن ما قاله الدكتور صايغ عن القيادات العسكرية يشكل نمطاً أساسياً في حياة المجتمع العربي إذ أن الغالبية العظمى من الاطباء والمحامين والمهندسين واساتذة الجامعات والعلماء العرب لا يتابعون احدث البحوث في مجالات اختصاصهم إلاّ فيما ندر وهم بالتالي مصابون بالترهل ويتحلون بقوى فكرية غير مشحوذة قطعاً. وعلاج هذه الظاهرة العامة الشاملة بالسرعة المطلوبة وقبل فوات الأوان لا يمكن أن يتم عن طريق التسليم ، مع الدكتور صايغ ووليد الخالدي ، بالوضع القائم عربياً و « بالكيانات السياسية » الموجودة و «النخب العربية» المهيمنة (٩٢) أملا في أن يأتي اليوم الذي تقتنع فيه هذه الكيانات باتخاذ الاجراءات الحاسمة

---

(٩٢) لخص ناجي علوش فحوى هذه المسألة تلخيصا مركزا وشاملا على النحو التالي : « ان ما حدث مصير .. مسألة وجود ، وبهذا يجب ان تكشف دلالاته وان توضح . وهو في رأيي انهيار تام لنظم ومفاهيم وعقليات واستراتيجيات واساليب تحكم هذا الوطن . فاذا اعتبرت ما حدث « نكسة » كان علي ان اؤمن بهذه النظم والمفاهيم والعقليات الخ ، وبقدرتها على ان تجعل مما حدث نصرا . وهذا ما يتعارض مع بديهيات لا لبس فيها . فاذا ما اعتبرنا ما حدث نكسة ، نكون من الذين حكموا على انفسهم بالعمى ، وارتضوا الذل والمهانة مصيرا » .

(« دراسات عربية » ، تموز ١٩٦٨ ، ص ١٠) .

لاستئصال آفة الترهل من حياة المجتمع العربي .

بعبارة اخرى إلى أن تتفجر في الوطن العربي قوى ثورية جديدة تلتزم قياداتها التزاماً نهائياً بقضايا الغالبيـة العظمى من أفراد الشعب العربي أي بقضايا الجماهير الكادحة ومصـالح الطبقة العاملة سيطول الانتظار العربي. أقول سيطول الانتظار العربي لأن قيادات من هذا النوع وحدها سيكون في مقدورها حمل أعباء تحويل العمل الفدائي إلى حرب تحرير شعبية حقيقية شاملة تشارك فيها الجماهير المعبأة مشاركة فعالة ، وحمل أعبـاء السير على الطريق الثوري الشاق في انجـاز التحرر العربي النهائي من سيطرة المصالح الاقتصادية الاستعمارية ونفوذها وفي تحقيق تغييرات ثورية شاملة تطال حياة المجتمع العربي بجميع جوانبها لتقضي على كافة أسبـاب العجز والضعف والتخلف التي فضحتها الهزائم العربية المتتالية . حـين تتسلم الجماهير الكادحة والعمالية العربية قضيتها وتحارب مع قياداتها هي حرباً حقيقية لأجلها سوف تتمكن حينئـذ من افراز مفكريها وكتابها وعلمائها وفلاسفتها ومنظريها لتصبح بعدهـا بغنى عن خدماتنا وخدمات اشباهنا من المفكرين الذين لا يمكن ان يمثلوا ـ بحكم الضرورة الموضوعية ـ اكثر من انصاف حلول لصالحها في مرحلة تاريخية انتقالية حاسمة .

ملحق

فيما يلي بعض الأمثلة عما قلناه في ثنايا هـذه الدراسة حول وسطية النظـام الناصري في مصر . وهي مستقاة من كتابات بعض المفكرين المصريين وملاحظاتهم .

« في آخر بيانات إحصائية أصدرها الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء في الجمهورية العربية المتحـدة بلغ سكان الريف ١٧,٧ مليون نسمة ، وعدد من يملكون منهم أرضاً زراعية تزيـد مساحتها عن خمسة أفدنة ١٧٨,٠٠٠ نسمة . واذا فرضنـا أن عدد أصحاب المهن الحرة والموظفين المقيمين بالريف يمثل ضعـف هذا العدد فاننا نجد أن بالريف أكثر من ١٧ مليونـاً لا يملكون شيئاً أو يملكون خمسة أفدنة فأقل . أي أن الفـلاحين الذين

يعتمدون على العمل اليدوي يمثلون وحدهم ٦٠٪ من مجموع سكان الجمهورية . فاذا أضفنا الى ذلك العمال اليدويين والحرفيين في المدن وأسرهم لارتفعت النسبة الى أكثر من ٨٠٪ على أقل تقدير» . ومع ذلك نجد أن نصيب العمال والفلاحين من مقاعد التنظيمات السياسية المنتخبة يجب ألا يقل عن ٥٠٪ بينما كان ينبغي ألا يقل عن ٨٠٪ باعتبار أن الدولة الاشتراكية هي دولة الفلاحين والعمال . (عن مجلة « الطليعة » المصرية ، أيار ١٩٦٨ ، ص ٢٥) .

وفي ما يلي ملاحظة أخرى عن أوضاع الملكية في الجمهورية العربية المتحدة ومدى تقصيرها عن المفهوم الاشتراكي العلمي لطبيعة الملكية وتأثير هذا التأرجح على تطور البلاد وتقدمها : « وإذا خرجنا من المدن إلى الريف لواجهتنا أرقام أكثر دلالة وأهمية . أولا تبلغ الملكية العامة للأرض ١٦٪ فقط من مجموع الأراضي الصالحة للزراعة أما باقي الأرض فهي مفككة تفتيتاً سيئاً فعدد الملاك الذين يملكون أقل من نصف فدان يبلغ ١٤٥٩١٦٧ مالكاً والذين يملكون نصف إلى فدان ٥٥٢١٦٢ مالكاً والذين يملكون من فدان إلى فدانين ٣٢٧٦١٢ ومن ٢ الى ثلاثة أفدنة ١٥٣٢٩٣ مالكاً .. ونسبة الملاك الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة الى مجموع الملاك ٩٤,٥ ٪ يملكون ٥٧,١ ٪ من الأرض. أي أن نصف الأرض الصالحة للزراعة في بلادنا لا يمكنها أن تستخدم في ظل علاقات الانتاج الحالية أي وسائل حديثة

للزراعة ، وحين تستخدم فانها ستكون باهظة التكاليف وغير مربحة . والثلث الآخر موزع بين ملاك أغنياء يملكون ثلاثة أرباع الجرارات الموجودة في مصر وهي طاقة تكفي لأكثر مما يملكون قطعاً ويستخدمونها هم في استغلال أصحاب الملكيات الصغيرة . كيف يمكن اذن في ظل مجتمع تسوده حتى الآن علاقات الانتاج الصغير سواء في الزراعة أو التجارة والى حد ما في الصناعة ، ان نطبق وسائل التكنولوجيا الحديثة والعلم والادارة العصرية . ان شيوع تفتت الانتاج لا يضر فقط بالانتاج نفسه ولكنه أيضاً يخلق الأرض الاجتماعية لكل الانحرافات المعرقلة للتقدم العصري . » (عن مجلة « الكاتب » ، أيار ١٩٦٨ ، ص ٢٩) .

وبسبب هذه الأوضاع المائعة التي يحق لنا اعتبارها ثورية بالنسبة للمحافظين والرجعيين من ناحية ، ومحافظة بالقياس للاشتراكيين العلميين من ناحية أخرى ، حدثت أمور مذهلة في الريف المصري على صعيد سلب الفلاح مكاسبه من قبل الفئات الريفية المستغلة . يوضح كمال الدين رفعت هذه المسألة كما يلي : « لكن جبروت الاقطاعيين يبلغ أقصاه حين يجردون مثلاً من ملكياتهم عن طريق فرض الحراسة عليها . ومع ذلك يبدأون حياة رأسمالية في ظل علاقات الانتاج شبه الاقطاعية . ان

أسرة الفقي في المنوفية قد فرضت عليها الحراسة عام ١٩٦١ ، ومع ذلك قدرت ثروتها عام ١٩٦٦ بأضعاف ما فقدته في عام ١٩٦١ . لقد تحولت من الاستغلال الاقطاعي إلى الاستغـلال الرأسمالي ... بل وبلغ بها الجبروت أن كانت تتقدم كل عام بمعاونة أعوانها في القرى وتواطؤ بعض موظفي الاصلاح الزراعي لشراء مواشي الاصلاح الزراعي وثمار مزارع الفاكهة التي وضعت تحت الحراسة ، بأثمان منخفضة ، لتعيد بيعها بأثمـان شبه احتكارية...،ولقد غدا واضحاً أن الرجعية تسيطر على الريف، وتجعل منه حصناً لتحركاتها المعادية للثورة ... الخ ... » (« التجربة الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة » ملحق مجلة « الكاتب » ، حزيران ١٩٦٧) .

ونجد مثالاً آخر عن الوسطية في مجالات التطبيق والتنظيم السياسي في طبيعة تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي .وقد طرح هذا الموضوع على بساط البحث في مصر بصورة ملحة بعدإعلان برنامج ٣٠ آذار لأن الاتحاد الاشتراكي بتكوينه وتنظيمه وتصوره يتأرجح بين الحزب السياسي الطليعي من ناحية ، والجبهة الوطنية الواسعة من ناحية أخرى بدون أن يتحلى بالمزايا الحقيقية لأي من هذين الطرفين . والسؤال المطروح بعد بيان ٣٠ آذار والتبديلات التي أدخلها على تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي هو : « هل الاتحاد الاشتراكي حزب حتى يمكن أن نقول أن بلادنا تشهد مولد نظام الحزب الواحد ؟ ...

إذا لم يكن الاتحاد الاشتراكي – إذن – حزباً من الأحزاب ، فلا يمكن القول أيضاً أنه جبهة وطنية أو شعبية أو أي شكل من أشكال الجبهة لأن الجبهة – كما هو معروف – عبارة عن التقاء أحزاب متعددة تمثل مصالح طبقات مختلفة ، تلتقي في مرحلة معينة حول هدف وبرنامج محدد ثم تنفض بعد ذلك لتضيق أو تتسع حسب الظروف ... إن الاتحاد الاشتراكي في صيغته الجديدة يأخذ مضمون الجبهة دون شكلها أي أنه شبه جبهة أو تجمع لطبقات وفئات متعددة حول هدف واحد ، ولكن يبقى التساؤل حول ما إذا كان هذا التجمع تجمعاً وطنياً يهدف إلى تحرير الجزء المحتل ومجابهة الأخطار التي تتهدد الاستقلال ، ثم ينفض كل إلى حال سبيله ومصالحه الطبقية . » (عن مجلة « الطليعة » المصرية ، أيار ١٩٦٨ ، ص ١٤٣) .

مثال آخر عن الوسطية في التطبيق نأخذه من وضع الصحافة في مصر . ناقش هـذا الموضوع بإسهاب وبراعة ودقة جمال الشرقاوي في مقاله « ملاحظات على صحافة الشعب » حيث بين ان الصحافة ، من ناحية ، هي « صحافة الشعب » وتعتبر من الأجهزة التابعة للاتحاد الاشتراكي وهي ملك كامل له . ومن ناحية أخرى نجد أن هذه الصحافة بالذات تتخذ موقفاً مخالفاً لذلك وتسير على خط مغاير يجعلها بعيدة كل البعد عن أن تكون لسان الاتحاد الاشتراكي المعبر عن أهدافه ورسالته والمدعم لنشاطه والدافع لتطويره . أي الصحافة في وضع متأرجح بين التنظيم الرأسمالي القديم الذي ورثته وبين وظيفتها

الحقيقية في مرحلة الثورة الاشتراكية باعتبارها صحافة الشعب وملكاً له .

يقول كاتب المقال المذكور « الشيء المذهل حقاً هو أن صحيفتينا الكبيرتين تكادان تخلوان فعلاً من أي شيء يتعلق بالعمال .. ونفس الموقف تتخذه الصحيفتان الكبيرتان من الفلاحين - فمن حيث الكم تكاد الصحيفتان تخلوان من شيء عن الفلاحين وكل ما تنشره لا يعدو الأخبار المتصلة بالقرارات الحكومية أو بنشاط الأجهزة المرتبطة بالريف . أي بما لا يرتبط أولاً وأخيراً بالفلاحين أنفسهم . (و) طريقة تنـــاول صحفنا لنشاط الاتحاد الاشتراكي لا تبرز أبداً هذا النشاط ، ولا تضعه في المكان الذي يسهل فيه على القراء رؤيته . فأخبار الاتحـاد الاشتراكي غالباً ما تأتي منزوية في الجريدة الثانية في باب «ماذا يجري خارج القاهرة » ، وفي الأولى في باب « الأخبـار » الذي يجمع ببنط ٦ والذي لا يكاد يقرأ . أما الصفحة الأولى فانهـا تكاد تكون محرمة على هذه الأخبار إلا في الحالات التي يكون فيها الأمر متعلقاً بأحداث قومية خطيرة جداً أو بشخصيات بارزة جداً ... لكن لماذا تتخذ صحافتنا هذا الموقف الغريب من قوى الشعب الأساسية ، ومن التنظيم السياسي للبلاد ؟ وقبل ذلك وبعده ، لماذا تستمر أمراض الصحافة الرأسمالية فيها رغم كل سنوات الثورة ورغم اتجاه مجتمعنا نحو الاشتراكية ؟ ... من المقرر أن الاعلانات تمثل أهم مصادر تمويـــل صحافتنا ...

مصدر حياة صحافتنا إذن هي الاعلانات . وهذه بداية الكارثة فليست هناك سوى صحافة البلدان الرأسمالية التي تعتمد على الاعلان في تمويلها ، طبعاً .. التمويل عن طريق الدولة يمكن أن يجد مبرره في أن الصحافة «خدمة عامة للمجتمع» ،والتمويل عن طريق الاتحاد الاشتراكي يمكن أن يجد مبرره في أن الصحافة جهاز اعلامي سياسي ، لكن ما تبرير التمويل بالاعلان عن طريق قطاع الانتاج اذا كان هذا الاعلان لا يؤدي وظيفة جدية للانتاج ؟ هنا تصبح المسألة اقتطاع جزء من ناتج المنتجين لدفعه – بطريقة غير منتجة – للصحافة ، أي أن الصحافة في الواقع تعيش عالة على القطاع العام ، متطفلة عليه ! وليس هذا استنتاجاً تعسفياً من جانبنا فكل الدلائل تؤكده . » (مجلة «الكاتب»، نيسان ١٩٦٨ ، ص ٧٣ – ٨٩).

وأخيراً مثال آخر مأخوذ من الحياة العامه في مصر .

« والحقيقة ان دولة اشتراكية ما ، لم تشهد هذا السباق على اقتناء السيارات والثلاجات ووسائل الترف والرفاهية الاخرى في السنوات الأولى للاجراءات الاشتراكية مثلما وُجد لدينا ، بحيث عمت روح الميوعة على روح النضال ، والتطلع الترفيهي على الجدية الكفاحية » . (عن مجلة « الطليعة » المصرية ، آب ١٩٦٧ ، ص ٢٨) .


مكتبة
ا.د
قدري حفني

هذا الكتاب

يرى الدكتور صادق جلال العظم أن النقد لا يعني أبداً مجرد التجريح وتعداد العيوب وإنما يعني أساساً التحليل الدقيق الواعي والصريح بغية تحديد مواطن الضعف وكشف أسباب العجز العميقة. وعلى هذا الأساس يقدم في كتاب « النقد الذاتي بعد الهزيمة » دراسة عن الهزيمة ترد الفشل العربي الى أسبابه البعيدة ومقدماته الأولية الكامنة في نسيج حياة المجتمع العربي التقليدي وأساليبه الاتباعية المحافظة في مواجهة التحديات المعاصرة.

الثمن

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت